جوزف روث

مدفن الكبوشيين

ترجمة: ماري طوق



مدفن الكبوشيين

الكتاب: مدفن الكبوشيين

التأليف: جوزف روث.

الترجمة: ماري طوق

الناشر: دار الفارابي – بيروت – لبنان
ص.ب. ١١/٣١٨١ – ت: ٣٠١٤٦١ – فاكس: ٣٠٧٧٧٥

التنضيد: شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.

الطبعة: الأولى ١٩٩٧

ـ ١ ـ

ندعى آل تروتّا. تنحدر سلالتنا من «سيبولج» في «سلوفينيا». لم أقلْ عائلة بل سلالة، لأننا لا نؤلّف عائلة. و«سيبولج» لم تعد موجودة، منذ زمن بعيد. وهي تشكّل حالياً مع بضع بلدات في الجوار مقاطعة على شيء من الأهمية. فالناس غير قادرين على البقاء وحيدين. لذا، يحتشدون ضمن جماعات لا معنى لها. والقرى أيضاً غير قادرة على البقاء وحيدة. فتنشأ عن ذلك مراكز سكنية لا معنى لها. يحس الناس أنفسهم مدفوعين باتجاه المدينة، والقرى نفسها تصبو إلى أن تصير مدناً. هذا كل ما في الأمر.

عرفْتُ «سيبولج» في طفولتي. اصطحبني أبي إليها مرةً مساء السابع عشر من آب، عشية الاحتفالات بميلاد الأمبراطور فرنسوا ـ جوزف التي كانت تُجرى حتى في الدساكر الأكثر تواضعاً من الأمبراطورية.

في النمسا الحالية، وفي البلدان القديمة الخاضعة للتاج، لا يُفترض أن تقع على أناس يوقظ فيهم إسم سلالتنا ذكرى معينة. لكن هذا الإسم كان مدوّناً في السجلات المفقودة للجيش النمساوي ـ الهنغاري السابق. وأقرّ بأنني فخور بذلك، والسبب تحديداً أن هذه السجلات قد فقدت. فأنا لست ابن الأزمنة الحاضرة. ويبدو لي من الصعب حتى ألاّ أصرّح أنني عدوّها المطلق. ليس لأنني لا أفهمها كما يحدث لي مراراً أن أدّعي، لكن فقط على سبيل التهرّب المهذّب. إن حبي للراحة هو وحده الذي يجعلني أرفض أن أنفرد أو أن أتخذ موقفاً حاقداً. من هنا، أكتفي بأن أقول إني لا أفهم الأشياء التي يُفترض بي أن أقول بأني أجدها كريهة وجديرة بالاحتقار. سمعي مرهف ولكني أصطنع أنني ثقيل السمع. لأنني أعتبر أن التظاهر بعاهة لأكثر نبلاً من أن أجبر على الاعتراف بسماع أصوات مبتذلة.

أخ جدي كان ذلك الضابط الصغير في المشاة الذي أنقذ حياة الأمبراطور فرنسوا ـ جوزف أثناء معركة «سولفيرينو». فمُنح رتبة نبيل، وسُمّي لوقت طويل، في الجيش كما في كتب القراءة في عهد الملكية المزدوجة «ببطل سولفيرينو». وذلك، إلى أن طواه النسيان وفقاً لرغبته الخاصة، فاعتزل. وهو يرقد الآن في مقبرة «هيتزنغ». وعلى ضريحه نُقشت هذه الكتابة البسيطة والجليلة:

«هنا يرقد بطل سولفيرينو».

تابع الأمبراطور إسباغ نِعمه على إبنه الذي صار محافظاً، وعلى حفيده الضابط في القنّاصة الذي سقط في معركة «كراسنه ـ باسك» في خريف ١٩١٤. لم يُقدّر لي ان أعرفه، ولا أن أعرف على أية حال أيّاً من هؤلاء الذين مُنحوا رتبة الشرف في سلالتنا. فهؤلاء الأرستقراطيون المنتمون إلى آل تروتّا أصبحوا خداماً مخلصين

ورعين لفرنسوا ـ جوزف. أما أبي، هو، فكان متمرداً.

كان أبي رجلاً متمرداً ووطنياً. كان صنفاً فريداً لا نقع عليه إلاّ في الملكيَّة القديمة. كان يحاول إصلاح الأمبراطورية وإنقاذ عائلة «الهابسبورغ»، ولأنه كان يعرف جيِّداً معنى الملكيّة النمساوية صار مشبوهاً واضطر لمغادرة البلاد. فسافر وهو لما يزل فتياً إلى أميركا. كان عالماً كيماوياً. وفي تلك الفترة، كانت معامل الأصبغة في نيويورك وشيكاغو في أوجّ تطورها، وتطلب مهندسين للعمل فيها. لم يُعانِ أبي في أوقات شدّته إلاّ من الحنين إلى قمح بلاده. لكنّه حين أثرى، أخذ يشعر بالحنين إلى النمسا بحدّ ذاتها. إنتقل للإقامة في فيينا. كان أبي رجلاً ثرياً، وكانت الشرطة النمساوية تحب الناس الأثرياء. لم توفّر الشرطة على أبي مضايقاتها فحسب، بل أسس حزباً سلوفينياً جديداً، واشترى جريدتين في «زغرب».

اتخذ له أصدقاء في أوساط حاشية الأرشيدوق الوارث فرنسوا ـ فرديناند. كان يحلم بأمبرطورية سلافيّة تحكمها عائلة «هابسبورغ»، معلّلاً النفس بمشروع ملكية تضم النمساويين والهنغاريين والسلافيين. وليُسمَح لي، هنا أنا إبنه أن أقول إن أبي لو عاش، لكان بإمكانه، كما أتصوّر على الأقل، أن يغيّر مجرى التاريخ. ولكنه توفي قبل ستة أشهر من اغتيال فرنسوا ـ فرديناند. ولكنني كنت في ذلك الوقت شاباً طائشاً، كي لا أقول مغامراً. كنت لامبالياً في جميع الأحوال، وأعيش كل نهار بنهاره كما يُقال. أو بالأحرى لا، هذا خطأ، لأنني كنت أعيش في الليل فقط. ففي النهار، كنت أنام.

— ٢ —

لكن، ذات صباح من نيسان ١٩١٤، فيما كنت لا أزال نائماً إذ لم يفت على عودتي إلاّ ساعتين، أُبلغت عن زيارة قريب لي. واحد من آل تروتّا.

اتجهت إلى غرفة الانتظار وأنا مرتدٍ مبذلي وخفّي. كانت النوافذ مفتوحة، وبلابل الصباح تصدح في حديقتنا من دون انقطاع. وكانت الشمس اليافعة تغمر الغرفة جذلى. بدت لي خادمتنا، التي لم يسبق لي أن رأيتها حتى الآن في مثل هذا الوقت المبكر، والتي لم أكن أعرفها إلاّ من خلال خطوط مؤلفة من أشقر وأسود وأبيض وكأنها علم. بدت لي خادمتنا غريبة في قميصها الأزرق. كنت أراها للمرة الأولى في قميصها الأزرق الداكن الشبيه بالبذلة التي يرتديها عمال الكهرباء ومصانع الغاز. كانت تحمل في يدها منفضة ريش حمراء، ومنظرها لوحده كان كافياً لأن يعطيني نظرة جديدة للحياة، نظرة لا عهد لي بها إطلاقاً. فللمرة الأولى، منذ سنوات، أرى الصباح في منزلي وأشعر أن الصباح جميل. كانت الخادمة تروق لي وأيضاً

النوافذ المفتوحة وغناء البلابل. كان الصباح ذهبياً كالشمس اليافعة، وخادمتنا نفسها بدت لي ذهبية كالشمس لدرجة أنني في بادىء الأمر، وإذْ بهرني كل هذا الذهب، لم أتبين الزائر الذي في انتظاري. لم أنتبه إلى وجوده إلاّ بعد مرور بضع لحظات، أو بضع دقائق ربّما. كان نحيفاً، أسمر اللون قاتمه، يشغل المقعد الوحيد في الغرفة. لم يقم بحركة عندما دخلت ورغم أن شاربيه وشعره كانا حالكي السواد، ومع أن سمرته حادة السُّمرة، كان مع ذلك يشرق هو أيضاً في ذهب الغرفة الصباحي، وكأنه قطعة شمس، قطعة متجزأة من شمس جنوبية وبعيدة. ذكّرني للوهلة الأولى بأبي المتوفي الذي كان هو أيضاً نحيفاً وأسمر ومبرنزاً وضامراً. كان إبناً للشمس، وبهذا يختلف عنّا نحن الشُقر الذين لسنا إلاّ أنصاف أبنائها. كنت أتكلم السلوفينية، فقد علّمني إيّاها. حيّيت قريبي تروتّا بلغته، فلم يبدُ مندهشاً للأمر. لم ينهض لتحيتي بل مدَّ لي يده من كرسيه وهو يبتسم، وأسنانه القوية البيضاء تلمع تحت شاربيه الفاحمين. خاطبني للحال من دون رفع الكلفة. شعرت أنني في حضرة أخ لي، لا قريب. عرف عنواني من كاتب العدل. ثم شرع يقول:

ـ «أورثني أبوك ألفي فلورين، وأتيت لأقبضها. لدي أخت أيضاً. ويمكنها أن تحصل بمهرٍ مؤلف من خمسمائة فلورين على المزارع الأكثر ثراء في «سيبولج».

سألته: «وماذا ستفعل بالباقي؟»

فأجاب فرحاً: احتفظ به».

ضحك. فبدا وكأن مزيداً من الشمس يغمر الغرفة.

ـ «ماذا ستفعل بهذا المال؟»

أجاب: «أوسِّع تجارتي».

وكما لو أن اللحظة الملائمة للتعارف قد أذنت أخيراً، نهض. نهض جسوراً واثقاً وعرّف عن نفسه باحتفالية مؤثرة.

ـ «إسمي جوزف برانكو»

عند ذلك فقط أدركت أنني أقف في مبذلي وخفي، في حضرة زائري. فرجوته أن ينتظرني. وذهبت لارتداء ملابسي.

ـ ٣ ـ

ربما كانت الساعة تقارب السابعة حين وصلنا إلى مقهى «ماجيرل». كان الصبية الخبّازون يظهرون عند الباب في ملابسهم البيضاء، وتفوح منهم رائحة الخبز بالحليب، والكعك بالخشخاش، والأرغفة المستطيلة المملّحة. كانت القهوة الطازجة المحمصة البتولية العطرة، يفوح أريجها مثل صباح ثانٍ، جلس جوزف برانكو إلى جانبي نحيفاً، أسمر قاتماً، جنوبياً، فرحاً، يقظاً، مفعماً صحة. وأنا اعتراني شعور بالخجل من شحوبي الأشقر ومن هيئتي المُتعبة كجوّال ليلي. وكنت، إلى ذلك، مرتبكاً قليلاً. فماذا علي أن أقول له؟ وازداد ارتباكي أيضاً عندما سمعته يقول: «لا أتناول القهوة

صباحاً. أفضل الحساء». بالتأكيد. فالمزارعون يتناولون في «سيبولج» حساء البطاطا على الإفطار.

طلبت له إذاً حساء البطاطا. استغرق تحضيرها وقتاً طويلاً. وفي انتظار ذلك، كنت منزعجاً من غمس فطيرتي في القهوة. وأخيراً جهز الحساء. قصعة يتصاعد بخارها. لم يبدُ على قريبي برانكو أنه يعير أيّ انتباه إلى الملعقة. بل حمل الصحن بيديه السمراوين المكسوّتين بوبر أسود، مباشرة إلى فمه. بدا وهو يلتهم حساءه بأنه نسي وجودي. كان منكباً تماماً على صحنه الباخر الذي تبقيه أصابعه النحيلة القوية مرفوعاً. أوحى لي بأنه رجل شهيته جديرة بالاحترام، يهزأ بملعقته لأنه يعتبر الاحتساء من الصحفة مباشرة أمراً أكثر تهذيباً. وأنا، إذ رأيته يلتهم حساءه بهذه الطريقة، وجدت أن اختراع الناس للملعقة شيء غير مفهوم ومثير للسخرية في الوقت نفسه... ثم ألقى قريبي صحنه على الطاولة. وعندئذ لاحظت أن الصحن قد فرغ تماماً وأصبح أملس برّاقاً وكأنه نظّف لتوّه. ثم قال لي برانكو:

ـ سأذهب هذا اليوم بعد الظهر لأحصل على المال».

فسألته ما هي التجارة التي يفكّر في توسيعها.

قال لي: «آه، تجارة بسيطة جداً، ولكنها تعيل جداً صاحبها في الشتاء.

علمت عندئذٍ أن قريبي فلاح متفانٍ لأرضه خلال الربيع والصيف والخريف، وبائع كستناء خلال الشتاء. كان يملك سترة من جلد الخروف، وبغلاً، وعربة صغيرة، وخمسة أكياس يضع فيها بضاعته. كان يجهز نفسه بهذه الأشياء ويذهب كل سنة ليجوب عند بداية الخريف، بعض البلدان في الامبراطورية القديمة. لكن، حين

يروق له أحد الأمكنة بشكل خاص، كان يمضي الشتاء بطوله هناك، حتى مجيء اللقالق. بعدها يحزم أكياسه الفارغة على البغل ويذهب إلى أقرب محطة، فيشحن حاجاته ويعود إلى دياره ليستأنف عمله من جديد كمزارع.

سألته كيف بإمكانه أن يوسّع تجارة من هذا النوع. فقال لي إنه يمكن إلحاق أشياء كثيرة بها. يمكن، مثلاً، إلى جانب الكستناء أن يبيع الفواكه والبطاطا المشوية. زدْ على ذلك أن البغل قد شاخ وكلّت عزيمته، وأصبح شراء بغل جديد من الأمور الملحّة. كما وأنه كان قد ادّخر خمسمائة كورين.

كان يرتدي سترة من الساتان اللمّاع وصدرة من المخمل المزهر مزدانة بأزرارٍ زجاجية ملوّنة، وتحيط بعنقه سلسلة ثقيلة من الذهب المحبوك علِّقت فيها ساعة. كان والدي قد ربّاني على محبة سلافيي أمبراطوريتنا، وكنت ميّالاً، بالتالي، إلى أن أعتبر أقل خدعة فولكلورية بمثابة رمز، فأخذت بهذه السلسلة في الحال. شعرت أني أحتاج إليها بشكل مطلق. فسألت قريبي كم يبلغ ثمنها.

فقال لي: «لا أعرف. ورثتها عن والدي الذي ورثها عن والده. هذه الأشياء لا تُشترى. ولكنك قريبي. لذلك أرضى بأن أبيعها لك، أنت».

ـ «كم هو ثمنها إذن؟»

لكني تذكرت عندئذ عظات أبي، وفكرت في سري أن فلاحاً سلوفينياً لهُو أنبل من أن يهتم بالمال وبقيمة المال.

بعد أن فكّر جوزف برانكو ملياً، قال:

ـ ثلاثة وعشرون كوريناً

لم أجرؤ على سؤاله من أين وقع على هذا المبلغ. نقدته خمسة وعشرين. فعدّها بعناية من غير أن يتظاهر بأنه سيردّ لي الباقي. ثم انتشل من جيبه محرمة كبيرة حمراء بمربعات زرقاء وخبّأ المال فيها، ثم عقدها عقدتين. بعد ذلك فقط، خلع سلسلته ووضعها على الطاولة. ثم أخرج الساعة من جيب الصدرة. كانت الساعة فضية ثقيلة قديمة الطراز ومزوّدة بمفتاح لتشغيلها. لكن قريبي أخذ يتردّد في فكّ الساعة. نظر إليها بحنان، إن لم يكن بمحبة، وقال أخيراً:

«بما أنك قريبي سأتخلّى لك عن الساعة مقابل ثلاثة كورينات إضافة إلى الحساب».

أعطيته قطعة نقدية تساوي خمسة كورينات، لكنه هذه المرة أيضاً لم يرد لي البقية، بل تناول محرمته من جديد وحلّ العقدة المزدوجة ببطء ثم صرَّ القطعة النقدية الجديدة مع القطع القديمة ودسّها جميعاً في جيب بنطاله، وهو يرمقني بنظرة ساذجة.

قلت بعد قليل: «صدرتك أيضاً تعجبني، سيكون من دواعي سروري أن أشتريها منك».

ـ بما أنك قريبي، سأبيعك أيضاً الصدرة».

ومن دون أن يتوانى، تخلّص من سترته وخلع الصدرة، ثم ناولني إيّاها من تحت الطاولة.

«قماشها من النوعية الجيدة، وأزرارها جميلة. سأبيعها، إكراماً لك، بكورنيْن ونصف».

نقدته ثلاثة كورينات. لكني لاحظت، من تعبير عينيه خيبته الواضحة لأنه لم يقبض أكثر. صار مغتاظاً ولم يعد يبتسم. غير أنه

امتثل في نهاية الأمر وصرَّ قطعة النقدية بطريقة متأنية ومعقّدة كما في المرات السابقة.

صرت، الآن، أملك في نظري جوهر ما يجعل المرء سلوفينياً حقيقياً: سلسلة قديمة وصدرة برسوم مزهرة، إلى جانب ساعة غير صالحة ثقيلة كالحصاة ومزوّدة بمفتاح صغير. لم أنتظر لحظة واحدة حتى أجهّز نفسي بهذه الأغراض الثلاثة. ثم سدّدت الحساب وأرسلت في طلب عربة. أوصلت قريبي إلى الفندق. كان ينزل في «بوق الصيد الأخضر». رجوته أن ينتظر قدومي في المساء، لأني سآتي لإحضاره. كنت أرغب في أن أقدمه لبعض الأصدقاء.

ـ ٤ ـ

مراعاة للظواهر، وعلى سبيل التضليل، ومن أجل أن أطمئن أمي، التحقت بكلية الحقوق. لكني لم أكن أحضر الدروس في الواقع. كانت الحياة الرحبة تشرع لي آفاقها مثل حقل متنوع الألوان لا يحدّه سوى أفق بعيد، بعيد جداً. كنت أعيش في خضم الأجواء السعيدة والصاخبة لشباب الطبقة الأرستقراطية، وأؤثر تلك الطبقة الاجتماعية إلى جانب طبقة الفنانين على أيّ شيء آخر. كنت أشاطرهم نزقهم

الارتيابي، وكآبتهم الفظة، ولامبالاتهم الأثيمة، ولهوهم المتعالي. أي بكلمة واحدة كل مظاهر هذا «الانحطاط» الذي لم نكن نشعر باقترابه بعد. كان الموت اللامرئي يشبك يديه الناحلتين فوق الكؤوس التي نفرغها ونحن مغيطون مرتاحو البال. كنا نتفوه بشتائم مرحة وبسباب أبله فيما كان أمبراطورنا العجوز فرنسوا ـ جوزف ينوء وحيداً تحت ثقل سنواته، وحيداً وجامداً، إن صحّ التعبير، بعيداً وقريباً في آن، حاضراً في كل مكان من أمبراطوريته الشاسعة الأرجاء والمتعددة الوجوه. ربما كانت هذه القناعات التي ندعوها حدساً، تهجع في مكان ما في حنايا أرواحنا الخفية. وعلى وجه الأخص تلك القناعة بأن أمبراطورنا العجوز فرنسوا ـ جوزف كان يموت قليلاً مع كل يوم يضاف إلى حياته، وأن الملكية تموت معه. كان هذا الشيء الذي في طريقه إلى الاضمحلال أكثر من وطن أو أمبراطورية، أكثر عظمة واتساعاً ونبلاً من مجرد وطن بسيط. كانت مزحاتنا تنطلق من قلوب مشحونة. ربّما لأننا كنا نشعر أننا مقدّرون للموت، كان كل ما يؤكد وجودنا في الحياة يمنحنا لذة تفوق الوصف: الحفلات الراقصة، والخمّارات الريفية، والخليلات، والنزهات في العربة، والحماقات على أنواعها والمغامرات البلهاء والهزء من أنفسنا والنقد الجارح «وبراتو» و«الغراند رو» والحفلات التنكرية وعلاقات الحب العابرة في المقاعد المنزوية في قاعة «الأوبرا الملكية» والمناورات العسكرية التي كنا نتغيب عنها، وهذه الأمراض التي كان الحب يُنعم بها علينا أحياناً...

يُفهم من هنا أن قدوم قريبي غير المرتقب كان ميموناً بالنسبة لي. إن أياً من أصدقائي العابثين لم يكن يملك قريباً مماثلاً، ولا صدرة مماثلة، ولا ساعة مماثلة، ولا علاقات وثيقة إلى هذا الحدّ «بسيبولج» الأرض الأم، وبالأرض السلوفينية الأسطورية، أرض

بطل سولفيرينو الذي لم يسقط بعد في النسيان مع أنه صار بطلاً خرافياً.

عند حلول المساء، ذهبت إلى الفندق لإحضار قريبي فرانكو. كان وقع صدرته الساتان اللماعة عظيم الأثر لدى أصدقائي. كان يتكلم ألمانية غير مفهومة، ويضحك كثيراً عارضاً أسنانه الناصعة البياض، ويعد أصدقائي بأن يشتري لهم من سلوفينيا سلاسل أخرى وصدارٍ أخرى، متقبلاً بطيبة خاطر دفعات مسبقة على الحساب. كانوا كلهم يحسدونني على صدرتي وسلسلتي وساعتي، متمنين لو أنهم استطاعوا شراء برانكو بكامله وقرابتي «وسيبولج» العزيزة.

وعدنا قريبي بأن يعود في الخريف. رافقناه حتى المحطة. اقتطعت له بطاقة من الدرجة الثانية. لكنه اتجه إلى شباك التوزيع ونجح في إبدالها ببطاقة من الدرجة الثالثة. أشار لنا من مقطورته. وعندما ابتعد القطار عن المحطة، أحسسنا أن قلوبنا تنفطر ألماً. لأننا كنا نتذوق حزننا بالنشوة ذاتها التي نتذوق بها لذتنا.

ـ ٥ ـ

ظلّ جوزف برانكو محور أحاديثنا لبضعة أيام. ثم نسيناه أو

بالأحرى وضعناه جانباً بصورة مؤقتة. ذلك أن حماقاتنا الجديدة كانت تستدعي نقاشها وتقييمها.

لم أستلم رسالة من برانكو إلاّ في أواخر الصيف، حوالي العشرين من آب، كانت مكتوبة باللغة السلوفينية، وقمت بترجمتها في المساء ذاته إلى أصدقائي. كان يصف فيها الاحتفالات التي أقيمت في «سيبولج» بميلاد الأمبراطور، وبذكرى تأسيس اتحاد المحاربين القدامى. ومع أنه كان جندياً احتياطياً أصغر سناً من أن ينتمي إلى فريق هؤلاء المحاربين القدامى، إلاّ أن ذلك لم يمنعه من السير إلى جانبهم باتجاه «والدوين» حيث كانوا يقيمون في الثامن عشر من آب في كل عام، احتفالات شعبية. وذلك لسبب بسيط وهو أن أحداً من الرجال لم يكن قادراً على حمل الطبل الكبير. كانوا يحملون خمسة أبواق وكلارينيت، ولكن ما معنى موسيقى السير من دون طبل كبير.

ـ قال الشاب «فستتكس»: «عجيب أمرهم هؤلاء السلوفينيون! الهنغاريون يحرمونهم من حقوقهم الوطنية الأكثر حيوية. ومع ذلك فهم يدافعون عن أنفسهم ويتمردون عند أول فرصة، متظاهرين بأنهم يحتفلون بميلاد الأمبراطور».

فردَّ الكونت شوجتيسكي، وهو الأقدم سناً بيننا، قائلاً: «ليس هناك ما يدعو إلى الغرابة في هذه الأمبراطورية. فلولا حكّامنا الأغبياء (كان يحب التعابير القوية) لما كان هناك شيء يدعو إلى الغرابة، ولا حتى في الظاهر. أعني أن هذه الغرابة التي تدعونها هي من الأشياء الأكثر طبيعية في الأمبراطورية النمساوية ـ الهنغارية. وأريد أن أقول في الوقت نفسه إن الأمور الطبيعية تبدو غريبة بسبب وضع أوروبا ككل، أوروبا التي ترهقها الدويلات والقوميات، بطبيعة

الحال: إنّ من يغني نشيد الأمبراطور هم السلوفينيون وغاليسيو وروثينيو بولونيا ويهود «بوريسلو» الذين يرتدون القفطان ونخّاسو «باسكا» ومسلمو «ساراجيفو» وبائعو الكستناء في «موستار». أما طلاب «برنو» و«إجير» وأطباء الأسنان، والصيادلة، والحلاّقون، والمصورون في «لينز» و«غراز» و«كنيتلفلد»، والمصابون بالسَّلعة في أوديتنا الألبية، فهم ينشدون كلهم نشيد «الراين المصون». ياسادتي، إن النمسا سيُميتها وفاء توتونيي نيبولونغ هذا. إن جوهر النمسا لا نعثر عليه في قلب الامبراطورية بل في الضواحي. النمسا لا نجدها في الألب: فهناك لا توجد إلاّ الظباء والبرسيّات الألبية وزهر الجنتيانا. هناك بالكاد يعرفون النسر الثنائي الرأس. إن ماهيّة النمسا تغذيها باستمرار وتعيد تشكيلها البلدان الخاضعة للتاج».

سوَّى البارون الشاب كوفاكس نظّارته الأحادية ـ وهو نبيل عسكري حديث من هنغاريا ـ كما يفعل دائماً حين يحسب أنه سيعطي ملاحظة لها أهمية خاصة. كان يتكلم المانية بلاده القاسية والشجية قليلاً. وهذا ليس بدافع الضرورة بل للتأنق وحبّ الظهور. ثم كان وجهه الهزيل الذي يذكّر بالخبز الذي لم يتخمر كفاية يحمّر بشدة وبطريقة فيها شيء من الافتعال.

قال: «إن الشعب الأكثر بؤساً من بين جميع شعوب الملكية الثنائية هو الشعب الهنغاري».

كانت هذه جملته المقدسة وأساس مبادئه. كان يزعجنا كلنا بأقاويله ويتوصَّل أحياناً إلى إغضاب شوجنيسكي، أكبرنا سنّاً. لذلك كان شوجنيسكي يردّ عليه كالعادة قائلاً:

ـ «يا عزيزي كوفاكس، الهنغاريون من جهتهم لم يمتنعوا عن

قمـع السـلـوفـاكـيـين والـرومـانـيـين والـكـرواتـيـين والـروتـيـنـيـين والبوسنياكيين وسوابيي الـ«باسكا» وساكسونيي «ترانسلفانيا».

وضع كوفاكس نظّارته الأحادية على الطاولة، وكان كلمات شوجنيسكي لم تبلغ مسامعه. «أعرف ما أعرف»، هكذا كان يفكر دائماً، وأحياناً لا يمتنع عن التصريح بذلك.

كان كوفاكس رجلاً شاباً غير مؤذٍ، وقادرا في بعض الأحيان على أن يقوم بمبادرات طيبة. لكني، من جهتي، كنت أجده غير محتمل، وبالرغم من هذا حاولت جاهداً وبكل تفانٍ أن أغذّي مشاعر وديّة تجاهه، كنت أتعذب بصدق لعدم تمكني من تحمله، وأملك لذلك سبباً وجيهاً: كنت مغرماً بأخته اليزابيت التي هي في التاسعة عشرة من عمرها.

قاومت طويلاً هذا الحب. ليس لأنني كنت أشعر أنني في خطر، بل لخوفي من مهزآت رفاقي. ففي الفترة التي سبقت الحرب الكبرى، كان أمراً محموداً أن نتباهى علانية بسخرية متعالية، وأن نجاهر على سبيل التكلف «بانحطاط» مزعوم، وأن نصطنع ما يشبه تعباً مفرطاً، وتأففاً بلا سبب. لقد عشت في تلك الفترة أفضل سنوات عمري. كان الحب محظوراً بشكل صارم، ولم يكن للمشاعر مكان، كانت لأصدقائي علاقات تافهة لا أهمية لها بنساء يجري تبادلهن أحياناً مثل معطف. نساء يحدث لك أن تنساهنَّ كما تنسى مظلة، أو تتعمد تركهن وراءك كما تترك رزمة مزعجة، خاشياً الالتفات من جديد لئلا يستوقفك أحدهم ويعيدها لك ثانية. كان الحب يعتبر في أوساط الذين أعاشرهم، انحرافاً، والخطوبة نوعاً من الإصابة بالسكتة القلبية، والزواج مرضاً مزمناً. كنا شباباً. ومع إننا كنا نقرّ بأن الحياة الزوجية عاقبة لا بدّ منها، كنّا مع ذلك نفكر فيها كما

نفكر بمرض تصلب الشرايين الذي سيأتي حتماً بعد عشرين أو ثلاثين سنة. كان بإمكاني انتهاز فرص عديدة للاختلاء بأليزابيت، رغم أن انفراد شاب بفتاة لأكثر من ساعة، ودون سبب وجيه، كان يعتبر آنذاك أمراً غير طبيعي. لكني لم أغتنم إلاّ القليل من هذه الفرص. والسبب أنني، كما سبق لي أن قلت، كنت أخجل أمام أصدقائي من أن أغتنم هذه الفرص كلها. كنت أحرص بدقة على ألاّ يلفت أيّ من مشاعري الانتباه، وأخشى أن يعلم أحد من أصدقائي بشيء، وأخاف من أن يُفضَح أمري في هذا الظرف أو ذاك، أحياناً، حين يحدث أن التقي بأصدقائي على حين غفلة، كنت أظنني قادراً على الاستنتاج من خلال صمتهم المفاجىء أنهم كانوا يتحدثون لتوهم عن حبي لأليزابيت كوفاكس، وعندئذ كنت أغتم كما لو أني ضبطت بالجرم المشهود، أو كأن أحداً اكتشف فيَّ ضعفاً ذميماً. وبالمقابل، حين اختلي بأليزابيت، كان يبدو لي تهكم أصدقائي وتشككهم وعجرفتهم «المنحطة» شيئاً سخيفاً، لا بل دنساً. لكن ذلك لم يكن يمنعني أيضاً، من أن يعاودني من وقت لآخر شعور من الندم، آخذاً على نفسي خيانتي لمبادئهم المقدسة. وهكذا، كنت أعيش، بطريقة ما، حياة مزدوجة وأشعر أن هذا الأمر يزعجني.

كانت أليزابيت آنذاك جميلة، وعذبة، ورقيقة، ومفعمة بالنوايا الطيبة حيالي. كان أقل تصرف من تصرفاتها أو حركة من حركاتها يثير فيَّ انفعالاً عميقاً. كأن تشير بيدها، أو تلتفت، أو تهزهز قدمها، أو تسوّي ثنية تنورتها أو ترفع قليلاً غلالة وجهها أو تُدني فنجان القهوة من فمها أو تنزع قفّازها أو تزين صدرها بزهرة جديدة... كل ذلك كان يُضمر تواطؤاً وديّاً معي... معي أنا بالذات... ويمكنني، استناداً إلى هذه الإشارات التي كانت تعتبر في ذلك من «الخطوات

الجريئة»، أن أستنتج بحقّ أن حنان النظرات التي كانت توجهها إليَّ أليزابيت، والتلامس الذي تتظاهر أنها لا تتعمده ليدها مع يدي أو لكتفها بكتفي. كل ذلك كان يشكّل وعوداً تجمعنا، وعوداً بالحنان العذب اللامتناهي الذي يكفي أن أرغب به، ليشرِّع آفاقه الرحبة أمامي. كان صوتها أجشاً وعذباً في آن. (لم أكن أستطيع تحمل أصوات النساء الحادة.. كان صوتها يشبه هديلاً خافتاً وأليفاً، طاهراً وشهوانياً في آن، يشبه وشوشة الينابيع الجوفية، أو هديراً بعيداً لقطار يصدف لك أن تسمعه في ليالي الأرق. كان أتفه الكلام، ما أن تتلفظه حتى يصير بفضل صوتها مكتنزاً مشبعاً بالمعاني وكأنه آتٍ من لغة موغلة في القدم، لغة اختفت من الوجود ولم تعد مفهومة، لكن بالإمكان الحدس بمعناها، لغة ربَّما سمعتها ذات يوم بطريقة غامضة في أحلامي.

عندما لا أكون قربها، وحين أذهب لرؤية أصدقائي، كنت أشعر للوهلة الأولى برغبة في أن أحدثهم عن أليزابيت وفي أن أشيد بها. ولكن ما إن أرى وجوههم المتعبة والمرتخية والهازئة وسخريتهم المرَضِيَّة التي كنت أخشى أن أكون ضحيّتها وأتحرق في الوقت نفسه للمشاركة فيها على مرأى ومعرفة من الجميع. عندها، كنت أشعر للحال بخجل أخرق صامت يشلني. وما هي إلاَّ لحظات حتى أسقط من جديد تحت تأثير هذه المجموعة «المنحطة» المتعالية التي كنّا جميعاً أبناءها الضالين والمتعجرفين.

ذاك هو الانشقاق الداخلي المجنون الذي كنت أتخبط فيه، دون أن أعرف إلى من بإمكاني أن ألجأ. كان يعنّ لي أحياناً أن أتخذ أمي مؤتمنة على أسراري. لكنني كنت شاباً، وهذا يعني أني اعتبرها غير قادرة على تفهم همومي. كانت علاقتي بها تفتقر في الحقيقة إلى

الصدق والعفوية، وتشكل محاولة متعثرة للإحتذاء بالعلاقات التي تربط الشباب بأمهاتهم آنذاك، لم تكن أمهاتهم في نظرهم أمهات بالمعنى الصحيح للكلمة، بل حاضنات يدينون لهنَّ بوجودهم في هذه الحياة وباكتمال نموهم. أو قد يمثلن في أفضل الحالات أماكن أليفة أوجدتهم الصدفة فيها، ولا يحتفظون منها إلاّ بذكرى مؤثّرة. أما أنا، فقد شعرت طيلة حياتي بنوع من الخجل المقدس حيال أمي، محاولاً دائماً أن أكبت هذا الشعور. كنت أتناول فقط طعام الغداء في بيتنا. كنا نجلس الواحد قبالة الآخر أمام طاولة غرفة الطعام الواسعة. كان مقعد أبي المتوفي يبقى فارغاً في أعلى الطاولة، ويوضع أمامه كل يوم، وبناءً على رغبة أمي، صحن وملعقة وشوكة وسكين إكراماً لذلك الذي غاب إلى الأبد. كانت تجلس إلى يمين المرحوم وأنا إلى شماله. كانت تشرب خمر العنب المَسَكي وأنا نصف قنينة من «الفوسلور». لم أكن أحبه وأؤثر عليه نبيذ «برغونيا» ولكني كنت أنصاع لرغبة أمي. كان خادمنا جاك يقدم لنا الطعام بيديه المرتجفتين داخل قفازهما الأبيض. كان شعره الكثيف من الأبيض نفسه. كانت أمي تأكل قليلاً وبسرعة ولكن بطريقة مهيبة: كنت كلّما أرفع عينيّ نحوها تنخفض عينها باتجاه صحنها، مع أنني كنت أشعر قبل ذلك بلحظة أنها تراقبني. كنت أشعر أن في ودّها أن تطرح عليّ أسئلة كثيرة، لكنها كانت تكبت هذه الأسئلة لتجنّب نفسها عار كذبات إبنها، إبنها الوحيد. كانت تطوي فوطتها بعناية، وعندئذ فقط أستطيع أن أتأمل عن كثب وجهها العريض وخديّها المهدلين وأجفانها الثقيلة المغضّنة. كنت أفكر وأنا أمعن النظر إلى أمي التي تطوي فوطتها فوق ركبتيها، أفكر بخشوع، ولكن بشيء من الضغينة، أن هذا العشّ الدافئ علّة وجودي هو الشيء الأكثر أمومة، وكنت أتعجب من أن يكون في إمكاني أن ألزم في

حضورها صمتاً مماثلاً ومعانداً حتى لا أقول متحجراً. وأتعجب في الوقت نفسه من أن أمي، هي أيضاً، لا تجد كلمات لتحدثني، وأنها تشعر حيال إبنها الكبير، إبنها الذي كبر بسرعة هائلة، بالانزعاج نفسه الذي أشعر به أنا حيال المرأة العجوز التي هرمت بسرعة، والتي بفضلها أبصرت النور. كم كان في ودّي أن أتحدث إليها عن صراعي الداخلي وعن حياتي المزدوجة وعن ألزابيت وأصدقائي. لكن، كان جلياً أنها ترفض الاستماع لما تشك فيه لكي لا تكون مرغمة على التصريح علانية. بما تحتقره إضماراً. ربما هي أيضاً انتهى بها الأمر إلى الخضوع للشريعة الظالمة التي تقضي بأن ينسى الأبناء جذورهم بسرعة فيعتبروا أمهاتهم سيدات عجوزات ناسين الصدر الذي أرضعهم. والشريعة الأبدية التي تُرغم الأم، هي أيضاً، على رؤية ثمرة أحشائها تزداد غربة عنها كلّما صلب عودها، والتي تدفعها إلى اكتشاف ذلك بألم في بادئ الأمر ثم بمرارة وبخضوع في النهاية. كنت أشعر أن أمي لا تحدثني كثيراً لأنها لا تريدني أن أقول أشياء يُفترض بها أن تنهرني عن القيام بها. ثم أني لو أذنت لنفسي أن أحدثها عن ألزابيت، ربما كنتُ ألحقتُ العار بألزابيت وبأمي وبنفسي. أحياناً كنت أشعر أنني على أهبة أن أحدثها عن حبي. ولكن ما إن أفكر بأصدقائي وبعلاقاتهم بأمهاتهم حتى يراودني شعور صبياني بأني سأكون خائناً فيما لو اعترفت لأمي. عندما كان أصدقائي يحدثونني عن أمهاتهم، كنت أشعر بخجل ثلاثي، خجل من أجلهم ومن أجل أمي ومن أجلي. كانوا يتكلمون عن أمهاتهم كمن يتحدث عن «علاقات عاطفية» مقطوعة أو عن عشيقات هرمن بسرعة. لا بل وأسوأ من ذلك، كان هؤلاء الأبناء يتصرفون وكأن أمهاتهم غير جديرات بهم.

إذاً كان أصحابي يمنعونني عن الإصغاء لصوت الطبيعة والعقل وعن التعبير بحرية عن عواطفي تجاه ألبزابيت وتجاه أمي.

بالمقابل، كان علينا، بعد أجل قصير، أن نكتشف بأن هذه الخطايا التي كنا نجمعها أنا وأصدقائي فوق رؤوسنا لا تحمل طابعاً شخصياً بل كانت مجرد أعراض بسيطة تنذر بدمار في طريقه لأن يتحقق، وسأتكلم عنه لاحقاً.

ـ ٦ ـ

قبل أن يتحقق هذا الدمار الشامل، قدّر لي أن ألتقي باليهودي مانيس ريزيجر الذي سيجرى عنه الحديث في غير مكان من هذا الكتاب.

كان من بلدة «زلوتوغرود» الواقعة في غاليسيا. وقد سنحت لي الفرصة أن أتعرف إلى هذه البلدة بعد تعرفي بمانيس ريزيجر بقليل. وتبدو لي هامّة لأنها لم تعد موجودة تماماً مثل «سيبولج». لقد دمّرت خلال الحرب. كانت في الماضي مدينة صغيرة، صغيرة جداً، لكنها مدينة مع ذلك. أما اليوم فصارت مروجاً شاسعة ينبت فيها النفل صيفاً، ويتدفق صرير الجنادب من العشب العالي، وتتكاثر فيها

ديدان الأرض الحلقية السمينة فتنقض عليها القبرات لالتهامها.

جاء مانيس لزيارتي في يوم من أيام تشرين الأول، وفي ساعة مبكرة، كمثل الساعة التي وفد فيها صديقه جوزف برانكو منذ عدة أشهر. وقد أتى بناءً على إيعاز من قريبي. جاء خادمنا جاك وقال لي: «سيدي هناك يهودي يرغب في رؤيتك». كنت أعرف حينئذٍ عدداً لا يستهان به من اليهود في فيينا بالطبع. لم أكن أشعر بأيّ حقد تجاههم. كانت معاداة السامية الناشطة في أوساط النبلاء التي كنت أرتادها، قد أصبحت عادة شائعة في أوساط الحجاب أيضاً والبورجوازيين الصغار ومنظفي المداخن وبائعي السجّاد. وكان هذا التغير يشبه تماماً التغيُّر الذي تحدثه «الموضة» والذي يدفع مثلاً إبنة حاجب فندق في المدينة لأن تشك في قبّعتها تلك الريشة نفسها التي كانت تتزين بها منذ ثلاث سنوات واحدةٌ من عائلة «تروتمانسدورف» أو من عائلة «زيكينيي». وبما أن واحدةً من عائلة زيكينيي لم يعد بمقدورها اليوم أن تتزين بالريشة، كذلك فإن المجتمع الراقي الذي كنت أنتمي إليه لم يعد في إمكانه أن يحتقر اليهود. والسبب بسيط وهو أن البوّاب صار يتكفل بهذا الأمر.

اتجهت إلى غرفة الانتظار وأنا أتوقع أن أرى أحد هؤلاء الإسرائيليين الذين كنت أعرفهم والذين طبعت مهنتهم، حتى لا نقول غيّرت، شكلهم الخارجي. كنت أعرف صرّافين، وبائعين متجولين، ورثائين، وعازفي بيانو في المواخير. لكن حين دخلت إلى غرفة الانتظار وجدت نفسي في حضرة رجل لا يتنافى فحسب مع الفكرة التي كوّنتها عن اليهود، بل يوشك أيضاً أن يدمّرها من الأساس. وجدتني أمام شيءٍ أسود هائل يبعث على الرعب. لم يكن في وسعنا أن نقول عن اللحية الملساء الناتئة التي كان يرخيها، بأنها تحيط

بوجهه الأسمر القاسي الناحل. لا، كان الوجه نفسه يخرج من عقد اللحية وكأنه مولود منها، وكأنها وُجدت قبله، وانتظرت أعواماً حتى تستطيع إحاطته بشعرها الكثّ. كان الرجل قوي البنية وطويل القامة. كان يمسك في يده قبعة قماشية لها واقية أمامية ويعتمر قلنسوة مستديرة من المخمل شبيهة بتلك التي يرتديها الكهنة أحياناً. كان يقف في مواجهة الباب قوياً وقائماً مثل صاحب نفوذٍ ذي شأن وقبضتاه الحمراوان المغلفتان تخرجان من أكمام قفطانه مثل مطرقتين. أخرج ورقة صغيرة مطوية من الحافة الداخلية لقبعته القماش. كانت تلك رسالة من قريبي جوزف برانكو. رجوته أن يتفضل بالجلوس، ولكنه رفض بحركة خجلة من يديه. وبدا رفضه أكثر خجلاً لا سيما وأن كلاً من يديه اللتين نفذتاه كانت قادرة على تهشيم شخصي إلى أشلاء وتهشيم النافذة والمنضدة الرخامية والمشجب وكل محتويات الغرفة. قرأت الرسالة الصغيرة، وعرفت أن الرجل الواقف أمامي يدعى مانيس ريزيجر وهو حوذي من «زلوتوغرود» وصديق لقريبي جوزف برانكو الذي كان يتلقّى مجاناً من حامل الرسالة الغذاء والكساء إبّان جولاته السنوية عبر بلدان المملكة ليبيع الكستناء. وكان عليّ بإسم القرابة والصداقة التي تجمع بيننا أن أهبَّ لمساعدة مانيس ريزيجر في كل ما يطلبه مني.

فماذا كان يريد مني، إذن، مانيس ريزيجر هذا من «زلوتوغرود»؟

فقط مقعد مجاني في المعهد الموسيقي لإبنه إفراييم الذي كان يظهر موهبة فائقة في الموسيقى. وحسب رأي أبيه، لم يكن هذا الإبن مهيأً ليصير حوذياً ويتعفن في الحدود الجنوبية للمملكة بل ليصير موسيقياً فذّاً.

وعدته بتنفيذ رغبته وقررت الذهاب إلى الكونت شوجنيسكي. كان الكونت من بين جميع أصدقائي «الغاليسي» الوحيد أولاً، والوحيد القادر ثانياً على تحطيم التصلب الراسخ والتقليدي والنافذ للأرستقراطية النمساوية القديمة، عن طريق التهديد والعنف والحيلة والدهاء، أي بالوسائل الملازمة لعالم متحضر اختفى منذ زمن طويل، أي عالمنا بالتحديد.

عند المساء، التقيت كالعادة بالكونت شوجنيسكي في مقهى «ويمرل».

كنت أعرف أن ما من متعة تضاهي لديه متعة أن نطلب منه خدمة لأحد مواطنيه. ذلك أن المهنة لم تكن تنقصه فقط بل الاهتمامات أيضاً. فيما هو كان قادراً على تحقيق مهنة لامعة في المجال العسكري والإداري والدبلوماسي. إلاّ أنه رفض كل شيء بسبب احتقاره لكل هؤلاء الأغبياء وبليدي الذهن والبلهاء الذين كانوا يتدبرون شؤون الدولة. كان يشعر إذا بمتعة قصوى حين يجعل المستشارين الحكوميين يهابون نفوذه القوي الذي يمده به وقار غير رسمي. ففي الوقت الذي كان يتصرف فيه بلطف كبير مع عمّال المقاهي والحوذيين والحمالين وعمّال البريد. وفي الوقت الذي لم يكن يتوانى مطلقاً عن نزع قبعته حين يطلب إرشادات من أحد العمال والموظفين، فإن هيئته كانت تتغير تماماً حين كان يبادر إلى مساعدة أحد محمييه في بالهاوسبلاتس وفي وشتاتهالتراي أو في وزارة الشؤون الدينية والتعليم العام. عندئذٍ، كان صلف جليدي يغزو قسماته مثل واقية شفافة. وفيما كان لا يزال يحتفظ عند أسفل الدرج بمظهر متسامح، لا بل متعاطف بعض الشيء وأمام الحاجب المرتدي بذلته، فإن تصلبه حيال الموظفين كان

يزداد بشكل واضح مع كل درجة يرتقيها. وعند وصوله إلى الطابق الأخير، كان يوحي بأنه أتى إلى هذه الأمكنة ليستدعي متهمين للمثول أمام محكمة رهيبة. كان قد أصبح معروفاً لدى بعض الدوائر. وعندما كان يتوجه إلى البوّاب في الرواق بصوت خفيض حازم: «بلغ قدومي إلى حضرة المستشار»، لم يكن يجري الاستعلام إذاً عن إسمه إلاّ نادراً. ولكن إذا طُلب منه مرةً التبليغ عن إسمه، ردّد بالصوت الأكثر انخفاضاً الذي في مقدوره: «بلِّغ قدومي فوراً لو سمحت». وطبعاً كانت الكلمات «لو سمحت» ملفوظة بنبرة أكثر ارتفاعاً:

بالإضافة إلى ذلك، كان شوجنيسكي يهوى الموسيقى، وبالتالي بدا لي مناسباً أن ألجأ إلى نصرته من أجل ريزيجر الشاب. فوعدني للحال بأنه سيباشر العمل منذ الغد. بدأت أشعر بالقلق لأنه أظهر تعاطفاً سريعاً جداً للقيام بالمعروف. فسألته إن لم يكن راغباً، قبل القيام بوساطته في أن يسمع نبذة عن موهبة ريزيجر الشاب. لكن بدا لي أن ملاحظتي أخرجته عن طوره. فقال:

«ربما تعرف السلوفينيين الذين يخصونك. لكن أنا أيضاً أعرف يهود غاليسيا الذين يخصونني. الأب يدعى مانيس وهو حوذي كما قلت منذ قليل، والإبن يدعى إفراييم. هذا كافٍ بالنسبة لي. أنا مقتنع تماماً بموهبة هذا الشاب، وأعرف هذه الأشياء بفضل حاستي السادسة. فيهود غاليسيا يملكون جميع المواهب. لعشر سنوات خلت، لم أكن أحبهم، لكنهم الآن باتوا أعزاء على قلبي. فأشباه البلهاء بدأوا يؤمنون بمعاداة السامية. ما يجب أن أفعله هو أن استعلم عن الأسياد الذين يشغلون المكاتب المختصة لأعرف من منهم معادٍ للسامية. لأنني راغب في أن أجعلهم يغضبون من

صغيري إفراييم. وسأذهب لرؤيتهم برفقة الأب. على فكرة، هل مظهره يوحي كما أتمنّى بأنه يهودي فعلاً؟».

قلت له: «إنه يرتدي قفطاناً شبه طويل».

فهتف الكونت شوجنيسكي قائلاً: ممتاز. هاك الرجل الذي أريد. أنا لست وطنياً متعصباً كما تعرف، لكني أحب أبناء بلدي. فمفهوم الدولة والوطن شيء مجرد. أما المواطن فشيء واقعي محسوس. ليس في مقدوري أن أحب مجموع حقول القمح والشعير وكل غابات الصنوبر وكل المستنقعات وجميع أسياد بولونيا وسيداتها. لكن بإمكاني أن أحب حقلاً معيناً أو مستنقعاً معيناً ورجلاً معيناً! لأنَّ هذا بإمكاني أن ألمسه فلغته أليفة لدي، وتفرده يمثل لي ذروة الحميمية. على كلٍّ ثمة أناس أعتبرهم أبناء بلدي حتى ولو كانوا في الصين أو في إيران أو في أفريقيا. ثمة أناس أشعر معهم بالألفة من النظرة الأولى. أستطيع القول إن المواطن الحقيقي يهبط من السماء كأعطية من النعمة الإلهية. ولو قدر له أن يبصر النور فوق أرض أجدادي، فنعم الأمر إذن! لكن هذا التفصيل الأخير ينتمي إلى الصدفة، فيما الأولى ينتمي إلى القدر».

ثم رفع كأسه هاتفاً:

«في صحة أبناء بلدي الموجودين في كل بقاع الأرض!»

بعد يومين جئت برفقة الحوذي إلى فندق كرمسير. بقي مانيس ريزيجر جالساً عند أقصى حافة الكنبة جامداً وعظيماً وقائماً. كان يخيل للناظر لدى رؤيته أنه لم يجلس هناك بنفسه، بل إن أحداً ما وضعه صدفة على حافة المقعد. وبالتالي لم يكن في وضع يؤهله ليحتل المكان كلّه من تلقاء ذاته. لم يكن ينبس بكلمة، باستثناء

الجملتين اللتين كان يردّدهما دون انقطاع ومن غير داعٍ: «أتوسل إلى سادتي» و«أشكر سادتي». كان شوجنيسكي هو الذي يروي لمانيس حوذي زلوتوغرود» عن الأشياء التي يمكن مشاهدتها في «زلوتوغرود. فهو يعرف كل زاوية في غاليسيا.

قال: «غداً، عند الساعة العاشرة، سنذهب لترتيب القضية».

فقال مانيس: «أشكر سادتي جزيل الشكر».

خلع قبعته القماش بيد وباليد الأخرى قلنسوته. ثم انحنى مرة أخرى عند عتبة الباب الذي تركه الحاجب مفتوحاً على شرفه. فتوجّه إليه بابتسامة عرفانٍ ورضى.

وما هي إلاّ أسابيع قليلة وأصبح إفراييم ريزيجر عضواً في المعهد الموسيقي. عندما جاء ليشكر المُحسن إليه، صادف وجودي هناك في فندق شوجنيسكي. كان الصبي يبدو كئيباً بعض الشيء، ويظهر وهو يعبِّر عن امتنانه بمظهر من يتقدم بشكوى. كان يتكلم البولونية واستطعت أن أفهم بفضل إلمامي بالسلوفينية، بعض الكلمات. غير أني أخذت ألاحظ من خلال تصرفات الكونت ونظراته أن هيئة الشاب المعاتبة والمتعجرفة تروق له.

بعد رحيل إفراييم، قال لي: «إنه شخص جدير بالاهتمام! هل تعرف، الناس في بلادنا لا يقولون لك شكراً بل العكس. إنهم لفخورون جداً يهود غاليسيا، أعزائي يهود غاليسيا! إنهم مقتنعون بأن جميع المراكز الهامة هي من حقّهم. هذا كل ما في الأمر. وهم يتقبلون النعم والترقيات غير القانونية ويتلقون ضربات الحجارة والشتائم بالبرودة المتعالية نفسها. جميع الناس يثورون عندما نشتمهم ويتذللون حين نُحسن إليهم. ولكن أعزائي اليهود البولونيين

لا يبدون اهتماماً لا للمراكز الجيدة ولا للشتائم. إنهم أرستقراطيون على طريقتهم الخاصة. فميزة الأرستقراطيين بالدرجة الأولى هي اللامبالاة. ولم أشاهد لامبالاة تضاهي لامبالاة أعزائي اليهود البولونيين.

كان يقول «أعزائي اليهود البولونيين» بالنبرة نفسها التي يقول فيها دائماً: «أراضي» أو «لوحاتي المفضلة عند فان غوغ» أو «مجموعة آلاتي الموسيقية». كان يبدو لي بوضوح أن ثناءه المتحمس على اليهود راجع إلى أنه يعتبرهم ملكيته. لكأنّ هؤلاء اليهود لم يبصروا النور في غاليسيا بإرادة الله بل بإيعاز شخصي من الكونت إلى العليّ، وبالطريقة التي يوصي فيها عادة على سجّاده الشرقي من عند «بوليتزر» الشهير، أو على ببغاواته عند القناص الإيطالي «سكابيني» أو على الآلات الموسيقية النادرة والقديمة عند العوّاد «غروسور». بالإضافة إلى ذلك، كان يولي علاقته باليهود العناية نفسها والحذر المرهف نفسه الذي يعامل به سجّاده وعصافيره وآلاته الموسيقية. إلى درجة أنه كان يعتبر أن من واجبه أن يبادر هو للكتابة ويهنّئ حوذي «زلوتوغرود»، محميه المتعجرف، بقبول إبنه في المعهد الموسيقي. كان شوجنيسكي يخشى في الحقيقة أن يسبقه الحوذي ويرسل له رسالة شكر.

لكن ريزيجر كان أبعد من أن يفكر في كتابة رسائل شكر أو أن يستطيع تقدير نعمة القدر الذي اقتاده وإبنه إلى جواري وجوار الكونت شوجنيسكي. ربما كان ميّالاً بالأحرى إلى الاعتقاد بأن على المعهد الموسيقي في فيينا أن يكون فخوراً بانضمام إبنه ذي الموهبة الخارقة إليه. واستناداً لما تقدم جاء مانيس ريزيجر لزيارتي بعد يومين وحدّثني على النحو التالي:

ـ «عندما يكون المرء كفوءاً في هذا العالم، لا بدّ أن يتوصل إلى شيء ما. هذا ما كنت أقوله دائماً لإفراييم وها إن ذلك قد تتحقق. إنه إبني الوحيد وهو يعزف بطريقة رائعة على الكمان. كان عليك أن تطلب منه أن يعزف لك مقطوعة. لأن له كبرياؤه الخاصة به.

كان الحوذي يتكلم وكأن من واجبي أن أشعر بالامتنان له هو مانيس ريزيجر، لحصولي على هذا الشرف العظيم لإدخال إبنه إلى المعهد الموسيقي، ثم أضاف:

ـ «لا شيء يدعوني للبقاء هنا في فيينا. أنوي الرحيل غداً.»

فقلت: «لكن ألا يتوجب عليك أن تقوم بزيارة نشكر فيها الكونت شوجنيسكي!»

فقال مانيس معترفاً بالجميل: «يا له من شخص جذاب هذا الكونت! سأذهب لأودّعه. هل تسنّى له الاستماع إلى إفراييم؟»

ـ «لا، ينبغي أن نرجوه أن يفعل».

كان قطار الحوذي سينطلق في الساعة الحادية عشرة مساء. أتى إليّ مانيس حوالى الساعة الثامنة وطلب مني، أو بالأحرى أمرني بأن أصحبه إلى فندق الكونت.

فليكن. رافقته إلى هناك. أبدى شوجنيسكي امتنانه لا بل عميق تأثره. وهتف:

«أمر رائع أن يأتي لزيارتي! ألم أقل لك من قبل! أرأيت بعينيك كيف يتصرف «يهودنا»!».

وفي نهاية الأمر، كان الكونت هو الذي شكر مانيس لأنه أعطاه الفرصة ليرعى موهبة من مواهب العالم. كان المرء يخال لدى سماع الكونت أنه لم يفعل شيئاً منذ عشر أو عشرين سنة إلاّ

انتظار إبن مانيس ريزيجر. أو أن حلماً خاصاً مدغدغاً، منذ وقت طويل، قد تسنّى له أن يتحقق أخيراً. وكعلامة على الامتنان، ذهب إلى حدٍّ إعطاء الحوذي المال ليدفع ثمن العودة. لكن الحوذي رفض ودعانا نحن الإثنين لزيارته وقال إنه يملك بيتاً مؤلفاً من ثلاث غرف ومطبخ وإسطبل لحصانه، وحديقة يوقف فيها العربة، ومركبة الثلج. ماذا! لم يكن إذاً حوذياً تعيساً. كان يجني حوالى خمسين كوريناً في الشهر.

وإن نحن أتينا لزيارته سيعاملنا وكأننا أمراء، وسيتدبر أمره كي لا ينقصنا شيء.

ولم يسهُ عن باله أن يذكّرنا أنا والكونت بأن من واجبنا المطلق أن نهتم بإبنه إفراييم عندما ودّعنا قائلاً: «يجدر بكما السهر على موهبة كهذه!».

وعده شوجنيسكي بذلك، ووعده أيضاً بأننا سنذهب حتماً إلى «زلوتوغرود» في الصيف المقبل.

ـ ٧ ـ

يجدر بي هنا أن أتكلم عن شيء هام. وهذا الشيء كنت آمل في

أن أقدر على تجنبه حين شرعت في تأليف هذا الكتاب. وهو يتعلق بالدين ليس إلاّ.

لم أكن مؤمناً مثل حال أصدقائي، جميع أصدقائي. ولم أكن أذهب لحضور القداس إطلاقاً. لكني كنت معتاداً على مرافقة أمي حتى بوابة الكنيسة. لم تكن أمي أكثر إيماناً مني ولكنها كانت متممة لواجباتها الدينية، كما يقال عادة. كنت أشعر في ذلك الوقت بكراهية حقيقية للكنيسة. لم أعد أعرف الآن وقد أصبحت مؤمناً لماذا كنت أكرهها. ربما بسبب «الموضة».

كنت أشعر بالخجل لو أني وجدت لزاماً عليَّ أن أقول كرفاقي إني ذهبت إلى الكنيسة. ليس لأنهم يبدون عدائية حقيقية تجاه الدين بل لأن نوعاً من الكبرياء كان يمنعهم من أن ينصفوا التقليد الذي تربوا عليه. في الحقيقة، لم يكن في نيتهم أن يرفضوا جوهر هذا التقليد، بل كنا نثور فقط على أشكاله. لم نكن عارفين بأن الشكل يتماثل مع الجوهر، وأن محاولة فصلهما أمر صبياني، أجل صبياني، ولكن ألم نكن مجرد أطفال. كان الموت يشبك يديه الناحلتين فوق الكؤوس التي نفرغها ونحن فرحون ساذجون. لم نكن نشعر بوجود الموت لأننا لم نكن نشعر بوجود الله. كان الكونت شوجنيسكي الشخص الوحيد بيننا الذي ظلَّ متمسكاً بالمظاهر الدينية، ليس لأنه مؤمن بها، بل لأن نبالته كانت تفرض عليه مجاراة الأصول. كان يعتبرنا نحن الذين نتحداها أشخاصاً فوضويين، ويقول دائماً: الكنيسة الكاثوليكية الرومانية هي الكنيسة الوحيدة التي لا تزال قادرة على أن تفرض سلطتها على هذا العالم الفاسد، وأن تصون هيكليته، وإذا صحَّ التعبير أن تتعطف عليه

بهيكلية ما. وهي إذْ تحتفظ ضمن دوغماتيتها، كما في داخل قصر زجاجي، بالأشياء الأكثر جوهرية في التقاليد القديمة. فإنها بالتالي تكسب نفسها وتمنح أبناءها الحرية في أن يمارسوا، خارج أبواب هذا القصر الذي تحيط به ساحة فسيحة رحبة، جميع الأشياء المحللة، وعند الاقتضاء الأشياء الممنوعة أيضاً. وهي مذ تصدر حكمها قائلة: هذه خطيئة، فهي تغفر فوراً هذه الخطيئة. إنها لا تفهم الإنسان من دون الخطيئة، وهنا يكمن جوهرها الإنساني الصميم. وعندما ترفع أبناءها إلى مقام قديسين لا غبار عليهم، فهي تسمح ضمناً للإنسان ألا يكون من دون خطايا. ولنقل إنها تذهب إلى حدّ إباحة الخطيئة ما دامت تعتبر أن هؤلاء الذين لا يخطئون مطلقاً لا يعودون كائنات بشرية بل يصيرون أبراراً وقديسين. وبهذه الطريقة تظهر ميلها النبيل إلى المغفرة والصفح. وليس هناك فضيلة أكثر نبلاً من الغفران. فكروا جيداً أنه لا يوجد ميل أكثر دناءة من الانتقام. فالنبل يسير دائماً على قدم المساواة مع الحلم، وروح الانتقام مع الدناءة.

كان الكونت شوجنيسكي الأقدم سناً بيننا والأكثر حلماً أيضاً. لكننا كنّا أكثر شباباً وجنوناً من أن نردّ لعظمته الاعتبار الذي تستحقه بشكل لا يرقى إليه الشك. كنا نستمع إلى كلماته بمتعة أكثر مما نستمع إليها باقتناع، متصورين أننا بإصغائنا إليه إنما نبدي تحبباً حياله. كنا نحن الشباب على ما نزعم نعتبر الكونت واحداً من أجدادنا. لم يتسنَّ لنا إلاّ فيما بعد، خلال الحرب، أن نكتشف أنه كان أكثر شباباً منّا.

لكننا عرفنا هذا متأخراً. لم ندرك إلاّ بعد أن فات الأوان أننا لم

نكن أكثر شباباً منه، وأننا كنا بكل بساطة مسلوبين من العمر، من العفوية ومن العمر. أما هو فكان على طبيعته، وجديراً بعمره. كان صادقاً ومباركاً من الله.

ــ ٨ ــ

بعد أشهر قليلة وصلتني هذه الرسالة من مانيس ريزيجر:

«سيدي العزيز،

بعد الشرف الذي خصصتني به، والخدمة الكبيرة التي أديتها لي، أسمح لنفسي بأن أقول لك بكل احترام إنني ممتن، ممتن جداً لك، إبني يكتب لي ويقول إنه يحرز تقدماً في المعهد الموسيقي، وأنا أدين لك بكل عبقريته. وأشكرك من كل قلبي. ثم وأني اغتنم الفرصة «لأطلب منك أن تتكرم بالمجيء لزيارتنا. قريبك تروتا ينزل في ضيافتي عند كل خريف منذ عشر سنوات. قلت في نفسي إنه سيكون جميلاً أن تأتي أنت أيضاً للإقامة عندي. صحيح أن بيتي متواضع ولكنه واسع.

أرجو ألاّ تغضبك دعوتي يا سيدي العزيز. لأني صغير جداً

وأنت كبير جداً. واعذرني أيضاً إذا كنت قد أوكلت إلى أحدهم أن يكتب لك هذه الرسالة، فأنا لا أتقن الكتابة وأعرف فقط أن أوقّع إسمي. وقد كتب لك هذه الرسالة هيرش كينيوير، وهو الكاتب العام المحلّف هنا، وهو رجل موثوق به ومحترم.

يشرفني يا سيدي العزيز أن أكون خادمك المخلص

مانيس ريزيجر

حوذي من زلوتوغرود»

كانت الرسالة بأكمها مكتوبة بإتقان وكأنها «مطبوعة» كما كانت تُوصف وقتئذٍ كتابة من هذا النوع. لكن التوقيع وحده أي الإسم يكشف عن عدم اللياقة المؤثرة ليد الحوذي. وكانت رؤية هذا التوقيع كافية لتجعلني أقرر وأحدّد موعد سفري إلى «زلوتوغرود» في مطلع الخريف. كنا نعيش في الفترة التي سبقت الحرب حياة مثيرة، وكان السفر إلى غاليسيا يأخذ طابع المغامرة. وأن أكون بطل هذه المغامرة فرصة رائعة لأتغطرس بكبرياء أمام أصدقائي. ومع أنَّ هذه الرحلة الحافلة بالمغامرات كانت لا تزال بعيدة، ومع أنني كنت سأقوم بها لوحدي، فإننا كنا نتحدث عنها وكأنّ أسبوعاً واحداً يفصلني عن «زلوتوغرود»، أو كأن هذا السفر لا أقوم به لوحدي بل بالاشتراك مع جميع أصدقائي بكامل عددهم. وبدأت هذه الرحلة تصير تدريجياً بالنسبة لنا شيئاً يشبه الشغف أو الهاجس. فأخذنا نتصور «زلوتوغرود» بطريقة كيفية تماماً. وبالرغم من قناعتنا التامة بأن هذه الصورة التي نرسمها هي من أكثر الصور غرابة، لم نستطع مع ذلك أن نمتنع عن تجميل هذا المكان الذي لا يعرفه أيّ منّا، وعن تزويده بجميع المحاسن التي كنا نعرف مسبقاً أنها

من نسج الخيال ولا تمت للمدينة الصغيرة بأيّ صلة.

لَكَم كانت سعيدة تلك الأيام! كان الموت يشبك يديه الناحلتين فوق الكؤوس التي نفرغها، هذا صحيح. ولكننا لم نكن نرى الموت ولا يديه. كنا نتحدث عن «زلوتوغرود» طويلاً وبإصرار، إلى درجة أحدث معها بأنّ خوفاً مفاجئاً اعراني، خوفاً من أن تختفي «زلوتوغرود» فجأة، أو أن ينتهي الأمر بأصدقائي إلى الاعتقاد بأن هذه البلدة ليست حقيقية وغير موجودة فعلاً وإنما هي مجرد حكاية اختلقْتُها. وفجأة تملكني شعور بنفاد الصبر وبالحنين إلى «زلوتوغرود» وإلى سائق العربة مانيس ريزيجر.

بدأت رحلتي في منتصف ١٩١٤، بعد أن كتبت رسالة إلى قريبي تروتا في «سيبولج» وأعلمته فيها أنني أنتظره هناك.

— ٩ —

بدأت رحلتي إذاً باتجاه «زلوتوغرود» في منتصف صيف ١٩١٤. حجزت في «فندق الدب الذهبي». قيل لي إنه الفندق الوحيد في المدينة الذي يليق بأوروبي.

كانت المحطة صغيرة جداً مثل محطة «سيبولج» التي ما زلت

احتفظ عنها بذكرى دقيقة. على كلٍّ، جميع المحطات في زمن الملكية النمساوية ـ الهنغارية القديمة، كانت متشابهة. كانت محطات المدن الريفية الصغيرة منمنمة «صفراء شبيهة بهِرَرٍ متكاسلة تستلقي تحت الثلج شتاءً، وتحت الشمس صيفاً ويحميها السقف الزجاجي التقليدي المظلَّل بالنسر ذي الرأسين، الأسود على أرضية صفراء. كنا نرى في كل مكان إن في «سيبولج» أو في «زلوتوغرود» الموظف نفسه ببطنه الضخم ولباسه الأزرق الغامق وحميلته الجلدية السوداء الموضوعة في عرض صدره حيث كان يصع الجرس الصغير ذا الرنين الثلاثي العذب المنتظم الذي ينذر بانطلاق القطار. وفي «زلوتوغرود» كما في «سيبولج» كنت تجد الأداة الحديدية السوداء تتدلى فوق الباب الذي يؤدي إلى مكتب رئيس المحطة، وتتدفق منها الرنّة الفضية الغريبة البعيدة التي تشبه رنين هاتف بعيد. إشارات صغيرة ساحرة آتية من عوالم مختلفة عن عالمنا. وفي محطة «زلوتوغرود» كما في محطة «سيبولج»، كان الموظف نفسه يحيي الوافدين والراحلين، وتحيته أشبه بسلام عسكري. وكنت تصادف أيضاً ردهة الانتظار نفسها الخاصة بالدرجة الأولى وبالدرجة الثانية وفي داخلها الخزانة نفسها مع القناني ذاتها من مختلف الألوان، ومع أمينة الصندوق الشقراء بصدرها العارم، ومع شجرتي النخيل الضخمتين نفسهما إلى يمين طاولة الشراب وإلى يسارها، واللتين كانتا تذكّران بعالم ما قبل التاريخ وبالكرتون في آن. وفي ساحة المحطة في «زلوتوغرود» كما في ساحة المحطة في «سيبولج» عربات خيل ثلاث متوقفة. وهناك، تعرفت في الحال إلى ما يمكن التعرف إليه بسهولة، إلى الحوذي مانيس ريزيجر.

وبطبيعة الحال، أوصلني بنفسه إلى «الدب الذهبي». كان يملك

عربة جميلة يجرها حصانان رصاصيان. كانت إطارات العجلات المكسوة بالمطاط والمطلية بالأصفر تشبه تلك التي رآها مانيس في فيينا.

أثناء الطريق، أسرّ لي أنه إذا كان قد أعاد تجديد عربته، فهذا لم يكن على شرف قدومي فحسب بل أيضاً بدافع من غريزة متقدة دفعته لأن يراقب عن كثب زملاءه في فيينا، وأن يضحيّ بمدخراته إلى إله التطور، فيشتري حصانين رصاصيين ويزوّد عجلات عربته بإطارات مطاطية.

كانت المسافة التي تفصل المحطة عن المدينة طويلة. وقد تسنّى لريزيجر الوقت ليروي لي أموراً تخصه شخصياً. أثناء ذلك، كان يمسك الرسن بيده اليسرى، ويُبقي السوط إلى يمينه مشكوكاً في القراب. كان الحصانان يعرفان الطريق جيداً، ولم يكن على مانيس أن يهتم بأمرهما إطلاقاً. كان يجلس متهاوناً على المقعد، يتدلّى المقود متراخياً من يده اليمنى، ثم كان يميل جذعه باتجاهي حين يريد أن يحدثني عن شؤونه.

كلّفته البهيمتان معاً خمسة وعشرين كوريناً فقط. كان الحصانان من أحصنة دائرة الخيل وقد فقد كل منهما عينه اليسرى فأصبحا غير صالحين للخدمة العسكرية. لقد تنازل عنهما جنود الخيالة وهم حراس الموقع في «زلوتوغرود» لقاء ثمن زهيد جداً. لكن لم يكن في مقدوره، هو مانيس ريزيجر، شراؤهما لولا أنه لم يكن أثيراً لدى كولونيل الفرقة التاسعة للخيالة. كانت «زلوتوغروف» تمتلك أولاً وأخيراً خمس عربات خيل. غير أن زملاء ريزيجر الأربعة الباقين لم يكونوا يملكون سوى عربات متسخة، وأفراس كسولة كسيحة، وعجلات ملتوية، ومقاعد جلدية مهدّبة، تخرج الشرابية المشعّثة من

جلدها المبقور والرثّ. ولم يكن في الإمكان أن يطلب من رجل ذي شأن، وخصوصاً من كولونيل أن يستقل عربات قديمة مماثلة.

كان قد أوصاني شوجنيسكي بأن أمرّ على قائد الحامية الكولونيل فولديس، وعلى المحافظ البارون غرابيك. كان في نيتي أن أقوم بالزيارتين بعيد وصولي. عاد الحوذي إلى صمته. يبدو أن جميع الأحداث الهامة في حياته قد نفدت فلم يعد لديه ما يقوله. إلاّ أنه استمر طيلة الطريق يبقى السوط مشكوكاً في القراب والمقود متدلياً مرتخياً، وجذعه منحنياً باتجاهي. كانت الابتسامة الدائمة لفمه العريض ذي الأسنان القوية البيضاء تبدو، تحت أسود شاربيه ولحيته المسائي المائل إلى الزرقة، شبيهة بضوء القمر الحليبي وسط غابات، غابات تبهج العين. كان هناك الكثير من الفرح والطيبة في هذه الابتسامة بحيث أنها محت الانطباع الذي يثيره المشهد الغريب والمسطّح والكئيب الذي كنت أمرّ عبره. كانت حقول واسعة تحف يمين الدرب ومستنقعات واسعة شمالها على طول الطريق الممتدة من المحطة إلى المدينة وبدا لي كأن المدينة الصغيرة قد أخذها الحياء فتعمّدت البقاء بعيدة عن سكة الحديد التي تصلها ببقية العالم. كان الوقت بعد ظهر ماطرٍ لصيفٍ في أواخره. وكانت عربة مانيس تسير فوق عجلاتها المكسوة بالمطاط، دونما ضجة وكأنها عربة شبحية تنهب الطريق المبتلة وغير المرصوفة. لكن الحوافر الثقيلة لاحصنة دائرة الخيل القديمة كانت تلطم الوحل الرمادي بإيقاع مضطرد، رافعة أمامنا تلعات من التراب.

كان المساء قد حلّ عندما وصلنا إلى البيوت الأولى. في الساحة قبالة الكنيسة تراءى البيت الوحيد ذو الطابقين في «زلوتوغرود»، يبشّر به من بعيد مصباح وحيد كئيب. كان الضوء الوحيد يشبه

يتيمة صغيرة تحاول عبثاً أن تبتسم عبر دموعها.

كنت مستعداً لرؤية كثير من الأشياء الفريدة والغريبة والبعيدة لكني شعرت مع ذلك بألفة مع أكثريتها. لم أدرك إلاّ في وقت متأخر جداً، أي بعد مرور وقت طويل على هذه الحرب الكبرى التي سمّيت «بالحرب العالمية» (وبحقٍ في رأيي ليس لأن العالم بأجمعه قد صنعها بل لأنها حرمتنا جميعاً من عالم ما، عالمنا نحن بالتحديد). أدركت إذاً أن كل شيء على هذه الأرض بما في ذلك المناظر والحقول والأمم والأعراف والبيوت والمقاهي على اختلاف أنواعها وأشكالها، خاضع بالضرورة للشرائع الطبيعية المطلقة، لروحٍ جبارة قادرة على التوفيق بين الأشياء المتباعدة، وعلى خلق صلة قرابة بين الأشياء الغريبة والمتنافرة وعلى توحيدها. وأريد أن أتكلم بهذا الخصوص عن روح الملكية القديمة، عن تلك الروح التي لم نفهمها والتي أسأنا استعمالها في أكثر الأحيان، لكن التي بفضلها لم أكن أشعر بالغربة لا في «زلوتوغرود» ولا في «سيبولج» ولا في فيينا. لم يكن مقهى «هابسبورغ» المقهى الوحيد في «زلوتوغرود» والواقع في الدور المسروق من «فندق الدب الذهبي»، يختلف عن مقهى «ويمّرل» في «جوزفستاد»، حيث كنت أذهب كل يوم بعد الظهر للقاء أصحابي. فهنا أيضاً كانت أمينة الصندوق تستوي وراء طاولة الشراب، أليفةً، شقراء ممتلئة الجسم كما يمكن أن تكون أمينات الصندوق في ذلك الوقت. كانت أشبه بإلهة شريفة للغش، خاطئة تهب نفسها لكن من دون إلحاح، شهوانية وخطرة وتاجرة جيدة في نفس الوقت تستقصي دائماً بنظراتها. كنت قد رأيت مثيلاتها في (زغرب» و«أولموتز» و«كشكمت» وزمباتلي»، و«أولدنبورغ» و«سترنبرغ» و«موغليتز». وكنت ترى أيضاً ألعاب الشطرنج

والدومينو والجدران المسوّدة ومصابيح الغاز وطاولة الطعام في الزاوية على مقربة من المغاسل والخادمة بمئزرها الأزرق، والدركي بقبعته البيج الفاتحة يقوم بظهوره الخاطف مسنداً بندقيته ذات الحربة إلى حاملة المظلات، ولاعبو التاروت(*) بعوارضهم المرخية على طريقة فرنسوا - جوزف وبأساور قمصانهم المستديرة يجتمعون بطريقة منتظمة كل مساء في الساعة نفسها. كل هذا كان «بلدي»، شيئاً أكثر قوة من مجرد وطن بسيط، شيئاً شاسعاً ومتنوعاً وأليفاً مع ذلك: هذا هو بلدي. كان المحافظ البارون غرابيك والكولونيل فولديس قائد الفرقة التاسعة لجنود الخيالة يتكلمان الألمانية الأخنة التي كان يتكلمها الموظفون الرفيعو المقام، وهي لغة قاسية وناعمة في الوقت نفسه، وكان مؤسسيها وآباءها هم سلافيون وإيطاليون معاً، لغة تميّزها سخرية خفيفة وتميل دائماً لأن تتلاءم مع الجمل غير المؤذية ومع الدعابة وشيء من الجنون الخفيف. لم يكد أسبوع يمر حتى أحسست أنني متأقلم مع «زلوتوغرود» كأنني كنت في «سيبولج» أو في «موغليتز» أو في «برنو» أو في مقهى «ويمرل» في «جوزفستاد».

بطبيعة الحال، كنت أقوم بنزهاتي اليومية في عربة صديقي مانيس ريزيجر. كانت البلاد فقيرة لكن تحت ستار من الودّ ورغد العيش. كانت المستنقعات الفسيحة الجدباء تبدو لي هي أيضاً مليئة بالنسغ والطيبة. وكانت جوقة الضفادع يطن نقيقها في أذنيّ كأنه نشيد الشكران ترتله كائنات حية أعلَمُ مني بالأسباب التي خلقها الله من أجلها وخلق المستنقع وطنها.

(*) تاروت: ورق لعب أطول من الورق العادي يحمل صوراً مختلفة وعدده ٧٨ ورقة.

وفي أكثر الأحيان، كنت أسمع في الليل صيحات طيران الوزّ البري الخشنة والمتقطعة تحلّق عالياً في السماء. لكن أشجار الكستناء الباسقة المهيبة بدأت تتعرّى من أوراقها القاسية والذهبية والمسننة بأناقة. كانت البطّات تصوّت وسط الشوارع حيث كانت برك الماء غير المنتظمة تقطع رتابة وحل فضي لا يجف أبداً.

في المساء، كنت أتناول العشاء عادة مع ضباط الفرقة التاسعة للخيّالة، أو بالأحرى كنت أشاطرهم إفراطهم في شرب الخمر. وفوق الكؤوس التي كنا نحتسيها سوية، كان الموت يشبك يديه الناحلتين دون أن نشعر بحضوره. أحياناً كنا نجتمع لوقت طويل حتى ساعة متأخرة جداً، وننتظر بقلق الليل الذي لا يُفسر، طلوع الصباح.

قلت إن هذا القلق، لأنه كان يبدو لنا آنذاك غير قابل للتفسير، كنا نعزو سببه إلى أننا أكثر شباباً من أن نضيّع ليالينا. لكننا، ولم أفهم ذلك إلاّ في وقت لاحق، كنا نخاف بشكل خاص من النهارات، أو بطريقة أصحّ من الصباح وهو اللحظة الأكثر جلاءً حيث نرى الأشياء بوضوح ونُرى بوضوح.

عند الصباح كنت ألجأ إلى الحوذي مانيس لكي أهرب من الوضوح وأيضاً من النعاس الثقيل، الذي يستولي على المرء بعد ليلة سهر أمضاها في الشرب، كأنه صديق مزيّف نكد المزاج ومتكلف، أو كأنه محسن مخادع. كنت أصل حوالى السادسة، أي عند اللحظة التي ينهض فيها من نومه.

كان بيته يقع خارج المدينة الصغيرة بالقرب من المقابر، ويلزمني نصف ساعة تقريباً لأصل إليه. أحياناً، كنت أباغت مانيس وهو ينهض من فراشه. كانت حقول ومروج لا تخصه، تحيط ببيته

الصغير المنعزل المطلي بالأزرق تحت سقفه المغطّى بالقرميد الرمادي الداكن. كان بيته أشبه بمخلوق بشري، إذ «لا يبدو جامداً بل متحركاً. كان أزرق الجدران يبرز بحيوية الأخضر المصفّر للمكان. كنت، حين أدفع البوابة الحمراء الغامقة التي تؤدي إلى مسكن مانيس الحوذي، أراه أحياناً ينزل درج العتبة، ثم يتوقف أمام باب بيته البني، مرتدياً قميصه وسرواله السميكين، حاسر الرأس، عاري القدمين وفي يده إبريق صغير من الفخار. كان يحتسي جرعة ثم يبصق الماء من فمه، فيرسم الماء قوساً كبيراً، ثم يعيد الكرّة. كان منظر لحيته السوداء الكثيفة ولباسه الخشن وشعره الأسود الأصوف يبدو قبالة الشمس الطالعة شبيهاً بمنظر الغابات البكر أو بالإنسان البدائي في عصور ما قبل التاريخ. كان يخلع قميصه ليغتسل عند سبيل الماء وهو يشخر بصخب كبير ويتنخّع ويزعق بما يشبه صيحات الابتهاج. كان يشبه حقاً اقتحاماً مدوياً للماضي في الحاضر، ثم كان يرتدي من جديد قميصه السميكة، ويذهب واحدنا باتجاه الآخر لنقول لبعضنا صباح الخير. كانت تحيتنا الرسمية والودية في آن تشكّل طقساً وتأكيداً ضمنياً، مع أني كنت أراه كل صباح، على أني من جهتي لا أعتبره حوذياً يهودياً فقط، وأنه لا يعتبرني من جهته شاباً نافذاً من فيينا. أحياناً، كان يطلب مني أن أقرأ عليه الرسائل القليلة التي يرسلها ابنه من المعهد الموسيقي. كانت جميعها مقتضبة. ولكن، بما أن مانيس لم يكن يفهم بسرعة اللغة الألمانية التي يكتب إفراييم بها، ـ الله يعلم السبب ـ وبما أن قلبه العطوف الأبوي يتمنّى الا تكون الرسائل قصيرة إلى هذا الحدّ، كان يحرص إذاً على أن تكون قراءتي بطيئة، ويطلب مني مراراً أن أعيد عليه قراءة الجملة مرتين أو ثلاثاً.

كان مانيس ما إن يخطو خطوة في الفناء، حتى تبدأ الطيور تزعق في الخمّ، وتستقبل الأحصنة قدوم الصباح والحوذي بصهيل يشوبه شيء من الشبق. كان مانيس يفتح أولاً الاسطبل فتخرج البهيمتان في الحال رأسيهما من الباب في وقت واحد. كان يقبّلهما وكأنه يقبل امرأة. ثم يتجه بعد ذلك إلى المرآب ليجر عربته ويربط الحصانين إليها. وأخيراً يطلق الدجاجات فتنطلق مبتهجة منقنقة في الفناء وتصفق بأجنحتها وكأن يداً خفية قد بذرتها.

تعرّفت أيضاً إلى زوجة مانيس ريزيجر. كانت تنهض عادة بعد نصف ساعة من زوجها، وتدعوني للدخول وشرب الشاي. كنت أحتسي الشاي في المطبخ الذي طليت جدرانه بالكلس الأزرق أمام السماور المعدني الأبيض. فيما كان مانيس يأكل الخردل والخبز المدعوك بالبصل والخيار، فتفوح عندئذٍ رائحة أليفة، أليفة تقريباً، مع أنه لم يسبق لي أن تناولت هذا النوع من الإفطار. ذلك أني كنت أحب كل شيء في ذلك الوقت لأني كنت شاباً، شاباً بكل بساطة.

ووصل بي الأمر إلى أن أحب أيضاً زوجة مانيس مع أنها كانت من هؤلاء النساء اللواتي ننعتهن إجمالاً بالقبيحات. كانت صهباء يغزو النمش بشرتها وتشبه خبزاً بالحليب منتفخاً في الماء. لكنها كانت، بالرغم من أصابعها المبرومة تملك طريقة مثيرة للشهية في سكب الشاي وتحضير الإفطار لزوجها. كانت قد أنجبت منه ثلاثة أولاد، إثنان منهما ماتا بمرض الجدري، لكنها ظلّت تتحدث عن صغيريها المتوفيين وكأنهما لا يزالان على قيد الحياة أو كأنها لا تقيم فرقاً بين الراقدين في القبر وبين ذاك الذي ذهب إلى المعهد الموسيقي في فيّنا. لا بدّ أنه صار في نظرها تماماً كأنه ميت لأنه خرج من عالمها.

لكن، إذا كان هناك أحد ما لا يزال على قيد الحياة بالنسبة لها، فهو قريبي بائع الكستناء. وفيما يخص هذا الأمر بالذات»، وجدت نفسي مشرّعاً لجميع أنواع الاحتمالات.

كان قريبي جوزف برانكو تروتا سيصل بعد ثمانية أيام.

ـ ١٠ ـ

وقد وصل فعلاً بعد أسبوع.

وصل مع بغله وكيسه الجلدي وكستنائه. لم يبدُ عليه في الظاهر أنه تفاجأ بوجودي هنا. فموسم الكستناء لا يزال بعيداً، وقد أتى قريبي قبل أسابيع عدة إكراماً لي. جلس طيلة الطريق المؤدية من المحطة إلى المدينة على المقعد إلى جانب صديقنا الحوذي مانيس ريزيجر. أما البغل فقد رُبط بمؤخرة العربة، وعلِّق الكيس الجلدي والقرن والكستناء إلى جهتي العربة. وعلى هذا النحو دخلنا إلى «زلوتوغرود»، لكن من دون أن نثير اهتمام أحد. بدا أن المدينة الصغيرة قد اعتادت على رؤية قريبي جوزف برانكو في كل سنتين. وبدا أنها اعتادت أيضاً على رؤيتي أنا الغريب التائه في هذه المناطق البعيدة. كان دخولنا إذاً إلى المدينة من دون أثر جدير بالذكر.

وكالعادة، حلَّ قريبي ضيفاً على مانيس ريزيجر. وإذ تذكّر التجارة الرابحة التي درّتها عليه الصيف الماضي، الساعة والسلسلة، أحضر من أجلي بعض الأغراض الفولكلورية، مثلاً: منفضة من الفضة المضغوطة نُقش عليها إضافة إلى خنجرين متشابكين، ومن دون علاقة بهذه الأسلحة، رسم للقديس «نيقوديموس» وأيضاً قدح نحاسي، بدا لي وكأن رائحة الخميرة تفوح منه، وساعة مصوّتة من الخشب المدهون دون إتقان. وقد تزود جوزف برانكو بكل هذا لكي يقدمه لي هدية. لكن بشرط أن أسدد له «ثمن النقليات». وفهمت ما كان يقصد بقوله «ثمن النقليات». وفي المساء نفسه لوصوله اشتريت المنفضة والقدح والساعة المصوّتة. فكاد يطير فرحاً.

أخذ قريبي يحاول، من أجل تمضية الوقت كما يدّعي من جهة، ولاغتنام جميع الفرص التي يمكن أن تدرَّ عليه بعض المال من جهة أخرى، بأن يقنع صديقه أنه هو أي جوزف برانكو حوذي ممتاز، أكثر جدارة من مانيس نفسه، وأكثر حنكة في تدبير الزبائن. لكن مانيس لم يكن يسمح لنفسه أن تخدعه كلمات من هذا النوع. بل تابع منذ الصباح الباكر يربط أحصنته إلى العربة ويذهب، غير عابىء بأمر برانكو، إلى المحطة أو إلى ساحة السوق حيث كان يتوقف زملاؤه والحوذيون الآخرون.

كان الصيف المنتهي جميلاً مشرقاً. لم تكن «زلوتوغرود» المدينة الكلاسيكية الصغيرة، بل تشبه قرية متنكرة أكثر مما تشبه مدينة حقيقية. كان يفوح منها لهاث الطبيعة النضر. كانت الغابات والمستنقعات والتلال المحيطة بساحة السوق تشد بخناقها على الساحة حتى نخال أن الغابات والمستنقعات والتلال ستنزل إلى

المدينة بين يوم وآخر كما ينزل المسافر الآتي من المحطة في فندق «الدب الذهبي». ومع ذلك، كان أصدقائي الموظفون في دائرة الشرطة، ومثلهم ضبّاط الفرقة التاسعة للخيالة، يعتبرون «زلوتوغرود» مدينة حقيقية، ربّما لأنهم كانوا يريدون اقناع أنفسهم بأنهم لا يتعفنون في مكان بعيد منفي. كان وجود المحطة الوحيدة في «زلوتوغرود» كافياً لأن يجعلهم يعتقدون بأنهم لا يعيشون بمعزل عن الحضارة التي فيها نشأوا وكانوا أولادها المدلّلين. لهذا، كانوا يتصرفون وكأنه يُفترض بهم حتماً أن يهربوا عدة مرات في الأسبوع من الجو الخانق لكثافة سكانية كبيرة، للتنقل في العربة باتجاه هذه المستنقعات والغابات والتلال فيما كانت هي التي تأتي باتجاههم في الحقيقة. فالطبيعة كانت تغزو «زلوتوغرود» وتحاصر أطرافها. كنا نذهب أنا وأصدقائي عدة مرات في الأسبوع إلى نزل «زلوتوغرود» على حدّ قولهم. وكنا نسمي هذه المشاوير «نزهة في الجبل»، ونتوقف مراراً عند جادلوكر في مقهى الحدود. كان جادلوكر العجوز يجلس جامداً شبه مشلول أمام بوابة نزله العريضة المفتوحة على مصراعيها والمطلية بأخضر كأخضر الحقول، وهو يشبه بلحيته الفضية حاخاماً يهودياً. كان منظره يذكّر بشتاء متلهف لتذوق آخر أيام الخريف الحلوة، وراغبٍ في حملها معه إلى تلك الأبدية الغريبة منه، حيث لا فصول البتة هناك. كان أصمَّ أصلخ لا يسمع شيئاً ولا يفقه حرفاً واحداً. لكنني كنت أشعر أنه يرى بعينيه السوداوين الكبيرتين ما لا يستطيع أناس أصغر سناً منه أن يدركوه إلاّ عبر آذانهم. وأنه كان أصمَّ بطريقة متعمّدة وبمتعة. كانت خيوط عنكبوت الحقل تحلّق بعذوبة وحنان فوق رأسه، والشمس الفضية الفاترة والمنحنية قليلاً تضيء العجوز الجالس قبالة الغرب، قبالة الغروب، أي في مواجهة الرموز الأرضية للموت. كان وكأنه

ينتظر أن تأتي بنفسها هذه الأبدية التي هو مقدّر لها لتأخذه فتجعله يتحاشى، بهذا، الذهاب إلى لقائها. كانت الجنادب ترسل صريرها الأبدي. والضفادع تنقنق دون توقف. والسلام الرحب يسود هذا العالم، السلام المرير لنهاية الصيف.

وأخيراً جاء الوقت الذي اعتاد فيه قريبي برانكو أن يبسط بضاعته في ساحة «زلوتوغرود»، وفيّاً لعادة قديمة يتبعها بائعو الكستناء في الملكية النمساوية ـ الهنغارية.

وليومين أيضاً، انتشرت الرائحة الحامضة قليلاً والدافئة للتفاح المطهو في أرجاء المدينة...

الخميس، بدأ المطر بالتساقط. والجمعة كان البيان معلقاً في الشوارع كلها.

كان البلاغ صادراً عن أمبراطورنا العجوز فرنسوا ـ جوزف. ويبدأ بالكلمات التالية: «إلى شعوبي!».

ـ ١١ ـ

كنت برتبة ملازم في الاحتياط. لكني تركت فرقة القناصة الواحدة

والعشرين منذ سنتين بالضبط، معتقداً أن الحرب ستأتي إليَّ في موعدها. وفي الوقت الذي أتت فيه فعلاً، أدركتُ ـ وأعتقد أن أصدقائي أدركوا مثلي فجأة ـ أن الموت مهما كان دون معنى، فإنّه يساوي أكثر من العيش دون معنى. كنت بالطبع أخاف من الموت. لم أكن أريد أن أُقتل بل فقط أن أثبت لنفسي إمكانية موتي.

كان قريبي جوزف برانكو وصديقه مانيس ريزيجر ينتميان إلى جند الاحتياط. وكان عليهما أن يلتحقا بفيلقهما. ذهبت، في مساء اليوم الذي علّق فيه بلاغ الأمبراطور، لتناول العشاء كعادتي في المطعم العسكري لضباط فرقة الخيالة. بدت لي شهيتهم وابتهاجهم المعتاد ولامبالاتهم المجنونة حيال الأوامر التي تلقوها بالاتجاه إلى «رادزيويل»، وهي بلدة تقع في الشمال الشرقي عند الحدود الروسية، غير قابلة للفهم. كنت أرى لوحدي على وجوههم البريئة المغتبطة اللامبالية العلامات المنذرة بالنهاية. كانوا كأنهم يعيشون هذا المرح الذي تحلّ نعمته ـ هذه النعمة التي هي رسولة المنيّة ـ غالباً بالمحتضرين. وبالرغم من أنهم كانوا جالسين أمام طاولاتهم يحتسون البيرة والعرق أصحاء ومتعافين، وبالرغم من أني تظاهرت بأني أشاركهم دعاباتهم الخرقاء، إلاّ أني شعرت مع ذلك بأني طبيب أو ممرض يشهد اللحظات الأخيرة لمريضه وهو مغتبط في سرّه لأن المريض لا يشك في اقتراب أجله. لكنني بدأت أشعر بامتعاض مع مرور الوقت. كما يحدث أيضاً لبعض الأطباء أو الممرضين حين يتساءلون في حضرة الموت وأمام مرح المحتضر، عمّا إذا كان من الأفضل أن يعترفوا للمريض المحكوم عليه بأن ساعته قد دنت، بدل أن يتركوه يرحل من دون أن يتوقع موته.

جعلتني هذه الأفكار أغادر فجأة السادة الضباط في الفرقة

التاسعة للخيالة، وأسير باتجاه بيت الحوذي حيث يقيم أيضاً جوزف برانكو.

كم كانا مختلفين عن الآخرين وكم أن رؤيتهما أراحتني، بعد هذه السهرة في مطعم ضباط الخيّالة! ربما ساهمت في ذلك أيضاً الشموع الطقوسية المضاءة في الغرفة المطلية بالأزرق. كانت تبدو وهي تحترق كأنها تقترب من نهايتها بسعادة أو على الأقل بثقة واقتناع. كانت الشموعِ ثلاثاً ومشكوكة في أعناق قناني البيرة، لأن مانيس كان أفقر حالاً من أن يستطيع شراء شماعد نحاسية. الآن. لم يتبقَّ منها إلاَّ أعقاب صغيرة بدت لي وكأنها ترمز إلى نهاية هذا العالم التي كنت أعرف أن تحققها قد بدأ فعلاً. كان الشرشف أبيض والقناني خضراء داكنة، وكان لونها كافياً لأن يشير بطريقة زقاقية وقحة إلى رخص المحتوى اللذيذ على أية حال، وبقايا الشموع صفراء ذهبية. كان لهبها يرتعش عاكساً فوق الطاولة شرارات مرتجفة وعلى الجدران الزرقاء ظلالاً متحركة. كان الحوذي جالساً في صدر الدار. لم يعد يرتدي سترته التي من جلد الخروف ولا حزامه الجلدي ولا قبعته القماش، بل جبة طويلة مصنوعة من وبر الألبكة، ويضع على رأسه قلنسوة من المخمل الأسود، أما قريبي برانكو فكان لا يزال مرتدياً سترته الجلدية الدبقة، ويعتمر مراعاةً لمضيفه اليهودي قبعته الصغيرة التيرولية الخضراء. في مكان ما، كان جندب يرسل صريره الحاد.

بدأ الحوذي بالكلام:

ـ «الآن، آن الأوان لنودّع بعضنا».

وببصيرة أكثر نفاذاً من أصدقائي في الفرقة التاسعة للخيالة،

وبالرغم من لا مبالاته التي زادته جمالاً مع ذلك، لأن الموت يرفع من شأن كل إنسان مستعد لملاقاته وجدير به، تابع يقول:

ـ ستكون حرباً طويلة، طويلة جداً، لا نستطيع أن نعرف من منّا نحن الثلاثة سينجو منها. ها إني جالس للمرة الأخيرة بالقرب من زوجتي أمام طاولة الجمعة مساء، أمام شموع السبت. فيا صديقيّ، أنت جوزف برانكو وحضرتك يا سيدي. فلنفترق كما ينبغي».

ومن أجل أن نفترق كما ينبغي، قررنا الذهاب ثلاثتنا إلى مقهى الحدود، عند جادلوكر.

ـ ١٢ ـ

كان مقهى جادلوكر يفتح ليلاً ونهاراً، ويلتقي فيه الجنود الروس الفارّون، وهم جنود القيصر الذين كانت تدفعهم الكلمات المداهنة لوكلاء النقل البحري الأميركي وخدعهم وتهديداتهم إلى الهرب من الجيش والإبحار باتجاه كندا، بالطبع كان هناك جنود يفرون من تلقاء أنفسهم. وكانوا هم أو أقاربهم يدفعون كل مدخراتهم حتى آخر كوبيك ليدفعوا إلى هؤلاء الوكلاء. كان نزل جادلوكر يعتبر مبنى سيء السمعة. وكان يحظى، مثل كل المباني السيئة السمعة

في هذه المنطقة، يحظى برعاية الشرطة النمساوية الخاصة، ويجد نفسه، موضوعاً في حماية السلطات وتحت مراقبتهم المتيقظة في آن.

بعد نصف ساعة من المشي الصامت المنهك، وصلنا إلى هناك. كان الباب الكبير بدرفتيه الصدئتين مقفلاً، والمصباح المعلَّق أمامه مطفأ. وجب طرق الباب. جاء الخادم أونوفريج وفتح لنا. كنت قد أتيت إلى نزل جادلوكر عدة مرّات وأعرفه جيداً. كنت أعرف الصخب الذي يعمّه عادة، تلك الضجة الخاصة جداً التي يحدثها رجال وجدوا أنفسهم فجأة مشرّدين ويائسين، لا حاضر لديهم بل يسيرون على الطريق المؤدية من الماضي إلى المستقبل، من ماضٍ أليفٍ إلى مستقبل مبروك تماماً، شبيهين بمسافرين غادروا اليابسة لكي يركبوا سفينة غريبة من فوق جسر مهتز.

لكن، في ذلك اليوم، كان الصمت يخيّم على النزل. صمت مشؤوم. كان كابتوراك الصغير نفسه، وهو أحد الموظفين الأكثر نشاطاً وصخباً والذي كان يخفي عادة وراء ذلاقة لسانه العجيبة العجولة كل ما تلزمه طبيعته الصموتة ومهنته بأن يبقيه طيّ الكتمان. كان كابتوراك الصغير قابعاً ذلك اليوم في زاوية قرب الموقد، ويبدو صغيراً جداً، أصغر بكثير من المعتاد، ضئيلاً حقيراً وكأنه ظلّ صامت لنفسه. في حين كان البارحة ليس إلاّ، يمرّر عبر الحدود، ولكي نستعمل الكلمة الشائعة «حمولة» من الجنود الفارّين. أما الآن فالجدران كانت مكسوّة ببيان الأمبراطور. أما الآن فالحرب قد بدأت. ووكالة السفريات البحرية ذاتها وجدت نفسها عاجزة. فالرعد العظيم للتاريخ العالمي يلزم كابتوراك الضئيل بالصمت، ويحوّله بَرْقُه إلى ظل. وكان الجنود الفارّون ضحاياه يجلسون خاملين واهنين أمام كؤوسهم التي أُفرغ نصفها فقط. حين كنت آتي في

المرات السابقة إلى مقهى جادلوكر، كنت أراقب لامبالاة «المشردين» الجدد الذين يفرغون الكأس تلو الكأس بحماسةٍ، بلذة تشبه لذة طائش يرى في مظاهر طيش الآخرين ـ الغريبين جداً عنه والذين لا دخل له بهم ـ الشهادة التي تبرر فقدانه لإحساسه هو بالذات. كان صاحب النزل جادلوكر يجلس وراء طاولة الشرب مثل رسول تعاسة. لا أقصد أن أقول الرسول الذي ينبّىء بحدوث الكارثة بل مرافقه. ويخيل للمرء لدى رؤيته أنه لا يرغب إطلاقاً في تبديل المشروب حتى ولو أُمر بذلك. فأيّ فائدة تُرجى؟ فغداً وبعد غدٍ يمكن للروس أن يكونوا هنا. كان جادلوكر المسكين يجلس هناك قبل ثمانية أيام جليلاً مهيباً بلحيته البيضاء وكأنه زعيم الحانات. لكنه ها هو يشبه الآن رجلاً محكوماً عليه بتصفية ماضيه كله، ها هو الآن ضحية التاريخ العالمي. أما أمينة الصندوق السمينة الشقراء الجالسة قربه إلى طاولة الشرب، فقد بلّغها، هي أيضاً، التاريخ العالمي إنذاراً بالإخلاء في فترة قريبة. وكل الشؤون الخاصة وجدت نفسها مدرجة في نطاق الشؤون العامة. صارت الشؤون الخاصة تمثّل الشؤون العامة وترمز إليها. لهذا السبب، كان وداعنا مقتضباً جداً وفاشلاً جداً. شربنا فقط ثلاثة كؤوس من نبيذ العسل وتناولنا معها القضامة المالحة بصمت. وفجأة قال جوزف برانكو:

ـ لن أذهب إلى «ساراجيفو». سأنضم إلى مانيس ونلتحق باحتياط «زلوكسو».

فهتفت قائلاً: ممتاز!

شعرت أنني، أنا أيضاً راغب في تقليد قريبي. لكني كنت أفكر في أليزابيت.

ـ ١٣ ـ

كنت أفكر إذاً في اليزابيت. مذْ قرأت بيان الأمبراطور، بدأت فكرتان تشغلان روحي: الموت واليزابيت. لا أزال أجهل حتى اليوم أيّاً منهما كانت الأقوى.

في مواجهة الموت، بدأت جميع أنواع المخاوف المجنونة التي كانت تثيرها فيَّ تهكمات رفاقي تتلاشى في النسيان. ولأول مرة في حياتي شعرت بالشجاعة، شجاعة الاعتراف «بضعفي». كنت أحسب أن العجرفة التافهة لرفاقي في فييّنا ستنهار حتماً أمام بريق الموت القاتم، وأنه لا مجال لأن يكون هناك، في أوقات الوداع المماثلة، مكان لاستهزائهم.

أنا، أيضاً، بإمكاني الالتحاق بثكنة «زلوكسو» التي كان مانيس ريزيجر تابعاً لها وحيث ذهب قريبي للالتحاق بها. كنت أودّ صادقاً أن أنسى اليزابيت وأصدقائي في فييّنا وأمي، وأن أضع نفسي في أقرب وقت ممكن وتحت تصرف السلطات العسكرية في «زلوكسو». كنت أشعر أن صداقة قوية تربطني بقريبي وصديقه. ومثلما

تنبجس لنا فجأة، عند حدوث مرض خطير، رؤى وأفكار صافية تجعلنا بالرغم من القلق والعذاب المنهك، نشعر بالرضى المتشامخ لأننا قد «عرفنا» أخيراً، وبالسعادة التي تمنحها ثقافة الألم، وبالنعمة لإدراكنا مسبقاً ثمن المعرفة. كذلك، فإن احتمالية موت قريب كانت تجعل أحاسيسي أكثر صدقاً وطهراً. أحياناً، قد نشعر بأننا سعداء جداً بمرضنا. وأنا كنت سعيداً جداً آنذاك بذلك المرض الفظيع الذي انتشر في العالم. ووجدت، بشكل ما، من حقي أن أطلق العنان لكل الرغبات المحمومة التي اعتدت على لجمها. كنت منعتقاً إذْ وجدت نفسي عرضة للخطر.

كنت أدرك منذ ذلك الحين أن قريبي جوزف برانكو وصديقه مانيس ريزيجر هما أقرب إلى قلبي من كل رفاقي السابقين، هذا إذا استثنينا الكونت شوجنيسكي. كنا نكوّن عن الحرب فكرة تبسيطية ومتساهلة جداً. وأنا كنت أنتمي في جميع الأحوال إلى تلك الفئة الكبيرة من الناس الذين كانوا يعتقدون أن الحرب هي أن يلتحقوا بمواقع الجنود السائرين بخطى منتظمة وفي وحدات متلاصقة، وأن يبقوا، إن لم يكن جنباً إلى جنب، فعلى الأقل قريبين واحدهم من الآخر ما يكفي ليتمكنوا من أن يتبادلوا أطراف الحديث. كنت أعتقد أني سأظل في جوار قريبي وصديقه، وأتمنى ذلك من كل قلبي.

لكن الوقت كان أثمن من أن نضيّعه. بل كان الشيء الوحيد الذي يشغلنا ويقلقنا هو ضيق الوقت. لم يعد هناك متسع من الوقت للتمتع بالفرصة الصغيرة التي تمنحنا إياها الحياة. ولم يعد هناك وقت أيضاً، لانتظار الموت. في الحقيقة، ما عدنا نعرف ما إذا كنا نشعر بالحنين إلى الموت أم بالرغبة في الحياة. وبالنسبة لي ولأقراني، كانت الأوقات التي نعيشها أوقات توتر شديد، يبدو لنا

الموت فيها لا كهاوية ستسقط فيها ذات يوم بل الضفة المواجهة التي نسعى لإدراكها بقفزة. وكنا نعرف كم هي طويلة الدقائق التي تسبق القفزة باتجاه الضفة الأخرى.

كان بديهياً أن أفكر أولاً في الرجوع إلى بيتي وإلى أمي. كان جلياً أنها لم تكن تتوقع رؤيتي من جديد، لكنها تظاهرت بأنها تنتظرني. وهنا يكمن أحد أسرار الأمهات. إنهنّ لا يتخلين أبداً عن إمكانية رؤية أولادهن من جديد. وإن كانوا أمواتاً أو أحياء، لا فرق. إذْ لو تسنّى أن يبعث ولد ما من جديد أمام عيني أمه، لضمّته إلى صدرها كأن شيئاً لم يكن، كأنه ليس عائداً لتوّه من العالم الآخر بل وافد من بلد قصيّ جداً في هذا العالم. إن أماً تأمل دائماً في ان يعود إبنها، ولا يهمها إن كان قد رحل إلى منطقة بعيدة أو قريبة أو إلى ما وراء العالم.

هكذا استقبلتني أمي عندما وصلت في العاشرة. كانت تجلس كالعادة في كنبتها وقد انتهت لتوّها من تناول إفطارها. كانت تمسك جريدة قبالة وجهها وتضع فوق عينيها نظاراتها البيضاوية الشكل القديمة الطراز. عندما دخلْت، نزعت نظاراتها، لكنها بالكاد اخفضت الجريدة.

قلت لها: «أقبّل يديك».

اقتربتُ منها وانتزعتُ الجريدة من يدها. ثم ارتميت عند قدميها. قبّلتني في فمي وعيني وجبيني.

ثم أجابتني: «الحرب على الأبواب». قالت ذلك وكأنها تبلغني نبأ ما، أو كأن الحرب لم تندلع إلاّ لحظة دخولي لأودعها.

رددْتُ:

«الحرب على الأبواب يا أمي. لذلك جئت لكي أقول لك وداعاً ولكي...» ثم أضفت بعد لحظة: «ولكي أتزوج من أليزابيت قبل الذهاب إلى الجبهة».

- «ولكن لماذا تريد أن تتزوج فيما أنت ذاهب إلى الحرب؟»

كانت تتكلم كما يليق بأم أن تتكلم، فإذا كان يتوجب عليها أن تدع إبنها - إبنها الوحيد - يذهب إلى الموت، فهي تريد على الأقل أن تسلّمه له بمفردها، ولا تفهم أن تشاركها امرأة أخرى في امتلاك ولدها أو في خسارته.

لا بدَّ أنها كانت تشك منذ زمن بعيد بحبي لأليزابيت التي تعرفها جيداً. ولا بدّ أنها خشيت منذ وقت طويل أن تخسر إبنها الوحيد، ان تخسره لصالح امرأة أخرى. وهذا يبدو لها ربَّما أسوأ من أن تخسره لصالح الموت.

قالت لي: «يا بني، صرت قادراً الآن على تقرير مصيرك بنفسك، وأنت الوحيد الذي يحق لك ذلك. تريد أن تتزوج قبل ذهابك إلى الحرب، أفهم هذا الأمر. أنا لست رجلاً، لم يسبق لي أن اشتركت في حرب، وبالكاد أملك فكرة عن مجريات الأمور العسكرية. بيد أني أعرف أن الحرب قاسية وأنها ربما سلبت منك حياتك. لكن إسمحْ لي في هذه اللحظة ان أقول لك الحقيقة: لا أستطيع تحمل أليزابيت. لو كان الظرف مختلفاً لما منعتك من الاقتران بها، لكنني ما كنت لاعترف لك قط بحقيقة مشاعري. تزوج إذاً وكن سعيداً إذا سمحت لك الظروف بذلك. والآن فلنقلع عن الكلام بهذا الخصوص. لنتكلم عن شيء آخر. متى ستلتحق؟ وأين؟»

للمرة الأولى في حياتي، أحسست بالارتباك أمام أمي، وبأني

مجرد طفل صغير. لم أعرف أن أجيبها إلاّ بهذه الكلمات التعيسة التي ما تزال تطن حتى اليوم، وكأنها انتهاك للمقدسات:

- «سأعود بعد قليل يا أمي».

قالت: «إنني أنتظرك على الغداء يا صغيري». وكأن شيئاً ما لا يحدث في هذا العالم.

ثم أضافت دائماً كعادتها:

- «لدينا على الغداء شرائح عجل وفطائر بالخوخ».

هذا الظهور المفاجيء «لفطائر الخوخ» المسالمة ضمن استعداداتي للحرب، بدا لي تعبيراً أمثل عن الأمومة. كنت منفعلاً إلى درجة أوشكت معها أن أخرّ ساجداً على ركبتي. لكني كنت أكثر شباباً من ألاّ يشعرني انفعالي بالخجل. وعرفت منذ ذلك الحين، أنه يفترض بنا أن نصل إلى مرحلة متقدمة من النضوج، أو أن نكتسب على الأقل خبرة كبيرة في الحياة، لكي نجرؤ على إظهار انفعالاتنا من غير أن يحول دونها خجلنا الكاذب.

قبّلت يد أمي كالمعاد. يدها أبداً لن أنسى يدها المرهفة الناعمة المعروقة. كان نور الصباح ينفذ عبر ستائر الغرفة الحمراء الرمّانيّة، حنوناً عذباً مثل زائرة صامتة أو مثل تنكر طقوسي. كان هذا الضوء الأحمر الزاهي يصبغ أيضاً يد أمي الشاحبة ويكسوها باحمرار خَفِر. يد مباركة في قفاز شفاف من الشمس المتسربة. كان تغريد العصافير الخريفي الخافت في حديقتنا يبدو لي أليفاً وغريباً تماماً مثل يد أمي الأليفة تحت نسيجها الناعم الأحمر.

غير أني اكتفيت بالقول:

«ليس لدي وقت لأضيّعه». وذهبت إلى زيارة والد حبيبتي أليزابيت.

ـ ١٤ ـ

كان والد أليزابيت تاجر قبعات معروفاً جداً في تلك الفترة لا بل كان ذائع الصيت. تحوّل من مستشار أمبراطوري عادي إلى بارون هنغاري غير عادي. كانت العادات الملكية المضحكة تملي أحياناً على أن يرقى مستشار تجاري من أصل نمساوي إلى رتبة بارون هنغاري.

غير أن الحرب كانت تصل في حينها بالنسبة لحمّي المقبل. كان قد أصبح كبيراً على أن يتجنّد، لكن صانع القبعات النشيط كان شاباً بما فيه الكفاية ليتحول إلى صانع سريع لتلك القبعات العسكرية التي تدر أموالاً أكثر بكلفة أقل.

كان الوقت ظهراً، والساعة تشير إلى الثانية عشرة تماماً في فندق المدينة، عند وصولي. كان راجعاً لتوّه من زيارة إلى وزارة الحربية، زيارة موفقة جداً بالنسبة له. فلقد تلقّى توصية بصنع نصف مليون قبعة عسكرية. قال لي، بأنه هو الرجل المسكين الذي شارف على

النهاية، والذي قلّ اعتباره، لا يزال في إمكانه بعد أن يقدم خدمة لوطنه. كان وهو يتكلم لا يتوقف عن تمسيد عوارضه الشقراء الشائبة وكأنه يرغب بهذه الطريقة في أن يداعب شطري المملكة، شطرها النمساوي كما شطرها الهنغاري. كان طويل القامة، قوي البنية، ممتلىء الجسم. بدا لي مثل عتّال سعيد أوكلت إليه مهمة صناعة نصف مليون قبعة، وكان ذلك الحمل يريحه بدل أن يتعبه.

قال لي بلهجة مفرطة في المداعبة: «لا شك أنك تطوعت. وفي إمكاني أن أخمّن أن ابنتي ستشتاق إليك».

في هذه اللحظة بالذات، أحسست أنه يستحيل عليَّ أن أطلب منه يد أليزابيت. لكني حينئذٍ، وقد حثني التهور الذي يستعين به المرء ليجعل المستحيل ممكناً، وتحت ضغط التهديد الذي يلوّح به الموت في كل لحظة دافعاً إيّاي لأتذوق بشغف، حتى آخر قطرة، ما تبقى لي من كأس حياتي التاعسة. حينئذٍ قلت إلى صانع القبعات بطريقة غير لائقة وبنفاد صبر:

- «عليَّ أن أرى ابنتك حالاً».

فأجابني قائلاً: «يا صديقي الشاب. أعرف أنك ستطلب يدها. وأعرف أيضاً أن أليزابيت لن تقول لا. في انتظار ذلك، خذ يديَ واعتبر نفسك مثل إبني».

مدَّ لي يداً ضخمة متهدلة شديدة البياض، أمسكتها. شعرت بأني ألمس عجينة مخيِّبة. كانت قبضة يده رخوة باردة وتكذِّب إسم الإبن الذي منحني إياه لتوّه. كانت اعترافاً بالعكس.

عندما جاءت أليزابيت، منعني حموي من الكلام.

قال وكأنه يعلن نبأ هاماً: السيد تروتّا ذاهب إلى الريفييرا، لكنه راغب في أن يتزوجك قبل أن يذهب».

كان يتكلم باللهجة نفسها التي تكلَّم بها في وزارة الحربية مع الكابتن المختص بالألبسة حين حدّثه عن القبعات العسكرية. لكن ما همَّ، فأليزابيت هنا. وابتسامتها هنا. كان إشراق هذه الابتسامة يسبقها متقدماً لملاقاتي. إشعاع نابع منها، إشعاع أبدي في الظاهر، متجدد من ذاته دون انقطاع، سعادة ساطعة ترسل صوتاً فضياً عبر صمتها.

للمرة الأولى تبادلنا قبلة محمومة جريئة على مرأى من الوالد. ربَّما كان يدفعنا إليها هذا التلذذ الفاسق الذي يثيره فينا وجود شاهد على فراقنا. وجدت نفسي مستسلماً. كنت مستعجلاً يتعقبني الموت منذ الآن. وكنت أشعر أنني إبن الموت أكثر مني إبن صانع القبعات. وعليَّ أن أركض سريعاً حتى «لاندشتراس» لألحق برفاقي في الفرقة الواحدة والعشرين. أن أنتقل دون تمهيد من الحب إلى الجيش، ومن الحب إلى الموت. كانَ الإثنان يتقاسمان قلبي بقوة متعادلة. ناديت على عربة وسرت باتجاه الثكنة.

وجدت هناك بعض الأصدقاء والأصحاب. كانوا يخرجون مثلي لتوهم من بين ذراعي الحب.

ـ ١٥ ـ

كانوا خارجين لتوّهم من بين ذراعي الحب وآتين في الوقت نفسه للقيام بالواجب الأكثر أهمية للمحارب. كانت حفلات الزفاف قد قررت. وكانوا كلهم على أهبة الزواج من فتاة ما، حتى ولو كان الأمر يتعلق بزوج غير متكافىء أو بخطيبة أوجدتها الصدفة. نساء يدخلن حياتنا كما تدخل يراعات هاربة سهلة ومخلصة ذات مساء من نافذة غرفتنا المفتوحة، فتحوّم فوق طاولتنا ومدخنتنا وسريرنا، شبيهة بهدايا مخملية يقدمها لنا ليل الصيف القصير السخيّ. لو أن السلام ظلّ مستمراً لكنّا عارضنا فكرة زواجٍ شرعي. وحدهم أولياء العهد كانوا ملزمين آنذاك بعقد الزواج وفقاً للقانون. وآباؤنا، كانوا منذ سن الثلاثين أرباباً لأسر كبيرة وأسياد منازل محترمين. أما نحن الجيل الذي قُدِّر للحرب منذ ولادته، فإن غريزة التناسل فينا بدت متلاشية. لم يكن الموت فقط يشبك يديه الناحلتين فوق الكؤوس التي نحتسيها، بل أيضاً فوق الأسرّة حيث كنا نمضي ليالينا مع النساء. لهذا السبب بالذات، كانت عشيقاتنا بنات الصدفة،

ولم نكن نبالي حتى باختيار الأداة التي تمنحنا اللذة.

الآن، فيما كانت الحرب تنادينا فجأة إلى المراكز الحربية، لم تحث فينا في بادىء الأمر فكرة الموت وإنما فكرة الشرف والخطر، وليد الموت. كان الشعور بالشرف يخدِّر فينا الإحساس بالخوف وكل المشاعر المكدَّرة. عادةً، حين يكتب محتضرون وصيتهم ليرتبوا شؤونهم في هذا العالم، يشعرون ربَّما برعشة تسري في ظهورهم. أما نحن فكنا في عز شبابنا وممتلئين صحة. لا شيء كان يجعلنا في الحقيقة نرتعش، بل إن الشيء الوحيد الذي يُمتعنا ويُرضي غرورنا هو أن نثير الرعشة في قلوب هؤلاء الذين لا يذهبون إلى الحرب. كنا بدافع التبجح، نكتب وصايانا، وبدافع الغرور الصرف نتزوج على عجلة من أمرنا، عجلة تنفي مسبقاً كل فكرة أو ندم. كان الزواج يسبغنا بنبالةٍ تفوق نبالة تضحيتنا الدامية. إذ كان يجعل الموت المخيف يبدو لنا من وجهة نظر أقل خطورة ونفوراً، لكن هذا لا يجعلنا نؤثر عليه زواجاً يربطنا مدى الحياة. كنا نقطع الطريق على أي تراجع. وكان الزخم الأولي المتأجج الذي لا يُنسى والذي ارتمينا به في المعارك التعيسة لبداية الحرب، عائداً بالدرجة الأولى إلى خوفنا من أن تسلبنا الحياة العائلية من جديد، والأثاث الذي يترصده النقرس، والنساء اللواتي يفقدن سحرهن مع الزمن، والأطفال الذين يولدون رائعين مثل ملائكة لكنَّهم يتحولون فيما بعد إلى مخلوقات غريبة ملعونة. لم نكن نريد كل هذا إطلاقاً، لا. كان الخطر محتوماً بطريقة أو بأخرى. لذا نخفف من وطأته قليلاً موقعين على عقود الزواج. هكذا كنا نتسلح لمواجهة الخطر، مثل وطن لا يزال مجهولاً منّا ولكنه ينادينا من بعيد بإشارات مشجعة.

لينك والبارون ليرش والدكتور بروسينير، متطابقة تماماً. لكني، كنت واثقاً من أن هؤلاء الأصدقاء، الأصدقاء الذين أذكرهم، يبدون بالمقارنة مع قريبي جوزف برانكو وصديقه الحوذي اليهودي مانيس ريزيجر، سطحيين وتافهين ورديئين وأغبياء وغير جديرين بالموت الذين ينطلقون في سبيله ولا بالوصايا ولا بعقود الزواج التي ينفذونها. بالطبع، كنت أحبهم، أحب قناصة الفرقة الواحدة والعشرين. كان الجيش الأمبراطوري والملكي القديم يمارس وطنية خاصة به قائمة على التحريات والنظام والقتال. إبّان خدمتي، وفيما بعد خلال الفترات السنوية للمناورات الحربية، كنت نشأت في جو مهنة السلاح إلى جانب رئيس الفرقة مارسك والرقيب تورلينغ والفريق الويس هابر. وكانت الخدمة العسكرية نشأة ثانية. فكما يتعلم الطفل أن يقوم بخطواته الأولى، كذلك يتعلم الجندي أن يمشي بخطىً منتظمة، من دون أن ينسى أبداً الجنود الذين تعلّموا المشي بخطى منتظمة إلى جواره، والذين تعلّموا، أيضاً، صقل أسلحتهم وطريقة استعمالها وحزم أمتعتهم وطيّ أغطيتهم بانتظام وتلميع أحذيتهم. ولا هؤلاء الذين تعلموا أيضاً الخدمة الليلية وهي القسم الثاني من النظام، وحفظ كلمات المرؤوسية والتبعية وهي القسم الأول من النظام. هذه الأمور لا تُنسى أبداً ولا «شاسّر فايس» حيث تدربنا على الركض، ولا تمارين اكتساب الليونة في نهاية الخريف عندما يلف الضباب الرمادي الأشجار كلها، محوّلاً قامات الصنوبر إلى أرامل مكسوّة بالحرير المزرق، ولا فرجة الغابة الممتدة أمام أعيننا حيث كنا نبدأ بعد استراحة الساعة العاشرة بالتدريبات المدفعية، وهي مقدمة مثالية للحرب الدامية. لا، هذه الأشياء لا تنسى. كانت الفرقة الواحدة والعشرون للقناصة في «فاسّر فايس» وطني الحقيقي.

لكن في أيّ جو من الغبطة كان يعيش أصدقائي! كنا نجلس في مقهانا الصغير الذي لم يكن في الأصل مقهى. فخلال السنوات الكثيرة (الكثيرة جداً بحيث أن ذكراها تضيع في مجاهل الزمن، أخذت ثكنتنا، ثكنة الفرقة الواحدة والعشرين للقناصة تندمج شيئاً فشيئاً متآلفة مع هذا الحي في المدينة. في هذا الوقت، أخذ الدكان العادي، الذي كنا نشتري منه حواشينا ونجومنا وإشارات التطوع والازرار وأشرطة الأحذية، يتحول تدريجياً إلى حانة صغيرة. كانت التخاريم تحتل دائماً أمكنتها على الرفوف وراء طاولة الشرب. الآن أيضاً، كنا نتنشق في غبش الغرفة رائحة علب الكرتون التي تحوي النجوم المطاطية البيضاء والنجوم الحريرية المذهبة وأزرار الضباط الإداريين وعلاّقات السيف الفاخرة، بالإضافة إلى روائح العرق ونبيذ التفاح ومشروب الكيرش(*) المعتق نسبياً. أمام طاولة الشرب ثمة ثلاث أو أربع طاولات ترجع إلى عهد حداثتنا، أيام التطوع. كنا اشتريناها بأنفسنا. لم يحصل تاجر التخاريم زينكر على رخصة له كبائع ليموناضة إلاّ بفضل توصية من بولي قائد كتيبتنا. لكنه لم يكن يحق له أن يقدم الشراب للمدنيين، لأن الرخصة كانت تقتصر فقط على العسكريين.

إذاً ها قد التقينا مرة أخرى في مقهى زينكر كما كنا نفعل أيام تطوعنا. لكن لا مبالاة أصدقائي وهم يحيّون الانتصار المقبل، كما كانوا يحيّون في السابق اقتراب امتحانهم لدورة الضباط بالتهليل والإفراط في شرب الخمر، كانت تؤذيني في الصميم. وتيقنت والحالة هذه من أن أصدقائي قادرون على الخضوع لامتحاناتهم بنجاح،

(*) الكيرش: مشروب كحولي مصنوع من الكرز العادي والكرز البري.

هذه من أن أصدقائي قادرون على الخضوع لامتحاناتهم بنجاح، لكنهم غير قادرين على الخضوع لمنحى الحرب. كان شبابهم مدللاً جداً في مدينة فيينّا التي تغذيها باستمرار دول المملكة. كانوا أولاداً مسالمين، مسالمين على نحو مضحك لعاصمة المملكة المغناج، المحتفية بكثرة، والتي كانت تشبه عنكبوتاً لامعة ساحرة هانئة وسط نسيجها الأسود والأصفر، وتتلقّى باستمرار القوة والنسغ والبريق من الدول المجاورة.

كانت الضرائب التي يدفعها قريبي المسكين بائع الكستناء في «سيبولج» جوزف برانكو تروتا، والتي يدفعها أيضاً مانيس ريزيجر الحوذي اليهودي الذي يعيش في «زلوتوغرود» حياة بائسة، تساهم في الانفاق على منازل «الرينغ» المتشامخة التي يملكها بارونات عائلة تودسكو وهي عائلة إسرائيلية نبيلة؛ وفي الانفاق، أيضاً، على المباني العامة: كالبرلمان وقصر العدل والجامعات والمصرف العقاري والمسرح والأوبرا، وصولاً حتى مديرية الشرطة. وكما كان يقول أبي، إن فرح فيّينا بشتى أنواعه يغذيه الحب المأساوي الذي تهبه بلدان المملكة للنمسا. حب مأساوي لأنه من طرف واحد. كان غجريو السهل الهنغاري وسكان جبال الكاربات والحوذيون اليهود في غاليسيا وأجدادي بائعو الكستناء في «سيبولج»، والسوابيون زارعو التبغ في «باشكا» ومربّو خيول السهب في «بوسني» و«هرزغوفين» ونخاسو «هاناكي» في «مورافيا» وحائكو «ارسجبرغ»، وطحّانو الفلفل وبائعوه في «بودولي»، كل هؤلاء كانوا يغذون النمسا بسخاء. عذابات كثيرة وآلام كثيرة كانت تُمنح بكل رضى من تلقاء ذاتها. وكانت ضرورية لكي يظل قلب النمسا وطن النعمة والفرح والعبقرية في نظر العالم! وكانت النقمة تزهر وتنمو لكن فوق أرض

يسمّوها الألم والأسى.

فيما كنا جالسين في حانة بائع القياطين، رحت أفكر بمانيس ريزيجر وبجوزف برانكو. لأن هذين الإثنين لم يكونا على استعداد للذهاب إلى موت لطيف، وبالعطف نفسه الذي كان ينطلق أصدقائي في سبيله. ولا أنا أيضاً! ولا أنا أيضاً! ففي ذلك الوقت، كنت الوحيد الذي يشعر بثقل الأيام الآتية. فما كان مني إلاّ أن نهضت فجأة وأنا متعجب من نفسي، وقلت ما يلي:

«يا أصدقائي! أنا أكنّ لكم مودّة كبيرة كما هو متوجّب بين الأصدقاء، وخصوصاً قبل ساعة واحدة من الموت!...»

لم أستطع أن أكمل. أوشك قلبي أن يتوقف وامتنع لساني عن خدمتي. عندئذٍ تذكرت والدي - وليسامحني الله - لأني كذبت وأسندت إلى أبي قولاً كاذباً لم يتلفظ به قط. لكن كان بإمكانه أن يتلفظ به في الحقيقة. وتابعت أقول:

«كانت إحدى رغبات أبي الأخيرة قبل أن يموت، في حال حدوث حرب قريبة كما كان يتنبأ دائماً، هي أن يراني ذاهباً ليس برفقتكم يا أصدقائي الأعزاء في الفرقة الواحدة والعشرين، بل بمعية جوزف برانكو تروتّا».

لزموا الصمت، وفي حياتي لم أسمع صمتاً مماثلاً. بدا الأمر وكأني أحرمهم من المتعة التافهة التي تمنحهم إياها الحرب، أو كأني أوقف رقصة الحرب الدائرية وأفسد عليهم متعتها.

شعرت بوضوح أنه لم يتبقَّ لي ما أفعله معهم. فنهضت وصافحتهم كلهم. وحتى اليوم لا أزال أشعر بأيدي رفاقي الباردة الخائبة. كان هذا يؤلمني أشد الألم، لكني أردت أن أموت برفقة

ريزيجر، وليس مع راقصي الفالس في فيينّا.

وهكذا كانت قطيعتي بوطني الأول. أعني مع قناصة الفرقة الواحدة والعشرين ومع «فاسّر فايس» في «براتر».

ــ ١٦ ــ

الآن، كان عليَّ أن أذهب لرؤية ستيلماتشر وهو صديق لشوجنيسكي ومقدّم في وزارة الحربية. كان انتقالي إلى الفرقة الخامسة والثلاثين للاحتياط لا يستغرق وقتاً أكثر مما تستغرقه استعدادات الزواج. وجدت أمراً ممتعاً أن أتمكن من أن أبدأ بمسعيين مختلفين في الوقت نفسه. كان هذان المسعيان يرهقانني كلياً ويمنعانني، إن صحَّ القول، من أن أبرر سبب عجلتي بشكل مقنع. لم أكن أعرف في ذلك الوقت إلاّ شيئاً واحداً: يجب الإسراع في ما أنوي فعله، رافضاً التفتيش عن السبب وعن النتيجة. لكن حدساً غامضاً كان يعتمل في أعماقي كمطر خفيف نسمع انسيابه عبر نومنا. إحساساً بأن هناك، في مكان ما على الطرقات الموحلة شرق غاليسيا، كان صديقاي جوزف برانكو ومانيس ريزيجر يتجهان إلى الغرب هرباً من مطاردة القوزاق لهما. أيكونان جريحيَن، أم ميّتين؟

من هو قادر على معرفة ذلك. على الأقل سأكرّم ذكراهما من خلال انضمامي إلى كتيبتهما. كنت شاباً، وكنا نجهل كل شيء عن الحرب، أليس كذلك؟ بأية سهولة استسلمت إذاً لفكرة أن الواجب يقضي عليَّ أن أروي للعسكريين الشجعان في الكتيبة الخامسة والثلاثين، نكاتاً حقيقية أو شبه مختلفة عن صديقيهم المتوفيين تروتا وريزيجر لكي أمنع بذلك ذكراهما من أن تضيع في النسيان: كانت قوات الكتيبة الخامسة والثلاثين تضم في صفوفها المزارعين الطيبين الفقراء. وكان المساعدون فيها يتكلمون الألمانية الإدارية المشتقة من اللغة السلافية، لغتهم الأم. والضباط، من جهتهم لم يكونوا الأولاد المدلّلين لمجتمع فيينا السعيد الطائش، بل أولاد الحرفيين والمزارعين وبائعي التبغ. كان قبولي بينهم يمثل لي بالضبط ما يمثله لهم نقلهم إلى الكتيبة التاسعة بقيادة الكونت شوجنيسكي. من الجلي أن هذه الفكرة تنتمي إلى تلك الأفكار التي نصفها باحتقار قائلين بأنها «رومنطيقية». حسناً! لكني كنت أبعد من أن تجعلني أفكار مماثلة أشعر بالخجل. ولا أزال حتى اليوم أقرّ بأن أفكاري الرومنطيقية هي التي جعلتني طيلة حياتي أكثر قرباً من الواقع من الأفكار القليلة غير الرومنطيقية التي ما قبلت بها إلاّ مكرهاً. أية بلاهة، هذه التسميات التقليدية! هلاّ اعترفنا لها رغم كل شيء بأهليتها، أقبل بذلك، لكني شعرت دائماً أن الواقعي على حدّ قوله يشغل في العالم مكاناً لا يمكن الوصول إليه مثل حصن من الإسمنت والباطون. أما الرومنطيقي، كما يزعمون، فهو يشبه حديقة تنفذ الحقيقة من خلالها بحريّة.

كان عليّ أن أذهب إذاً لرؤية المقدم ستيلماتشر. كان الانتقال في عهد الملكية القديمة، من الجيش العامل إلى الاحتياط، أو من الخيالة

عهد الملكية القديمة، من الجيش العامل إلى الاحتياط، أو من الخيالة إلى المشاة يعتبر شأناً حكومياً عسكرياً. بالطبع هذه العملية ليست أصعب من تعيين لواء لكنها أكثر تعقيداً. من جهة ثانية، كانت هناك في الملكية القديمة، عالمي المفقود، قوانين ثمينة وممتازة وإن غير مكتوبة، ممتنعة على الجاهلين ويعرف أسرارها المطلعون. قوانين جلمدية أكثر صلابة ورسوخاً من القوانين المكتوبة، يتلقّى بموجبها سبعة فقط مختارون بعناية من أصل مئات الملتمسين موافقة سريعة ومتكتمة على طلباتهم. اليوم، يهب برابرة العدالة المطلقة ثائرين على هذه القوانين، أعرف. وهم يستمرون في وصفنا بالأرستقراطيين ومتذوقي الجمال. بإمكاني، أيضاً، أن أرى هؤلاء المعارضين للأرستقراطية وتذوق الجمال، يجتهدون في كل لحظة لتمهيد الطريق أمام أقرانهم برابرة المساواة الشعبية الخرقاء الظالمة. ذلك أن العدالة المطلقة، هي أيضاً، تغرز أنيابها، أنياب التنين.

لكني كما قلت آنفاً، لم يكن لديّ وقت كافٍ للتفكير ولا أشعر بالرغبة في ذلك. اجتزت الرواق حيث كان نقباء ومقدّمون وعقداء ينتظرون طويلاً هناك. فيما أنا الضابط المسكين في القناصة كنت أدخل دون خشية عبر الباب الذي كتب عليه «ممنوع الدخول». وقبل أن يتسنّى الوقت لستيلماتشر المنكب على أوراقة، ليتعرف إليّ حتى استقبلني «تأهب!». كان يعرف حق المعرفة بأيّ مودّة يجب أن تلقى التحية على هؤلاء الذين يلجون الأبواب الممنوعة. رأيت شعره الخشن الرمادي المسرّح إلى فوق، وجبينه الشاحب المغضن وعينيه الصغيرتين الغائرتين اللتين تبدوان من دون أهداب، وخديه الشاحبين الناحلين وشاربيه الضخمين المتهدلين العربيين تقريباً

اللذين يبدو معهما الكولونيل وكأنه دسَّ فيهما مرة واحدة كل غروره فلا يعود يزعجه لا في مهنته ولا في حياته الخاصة. كنت قد رأيته آخر مرّة في دكان الحلوى «ديهمل» عند الساعة الخامسة من بعد الظهر، في صحبة سورغسام مستشار «بالهاوسبلاتس» لم نكن نفكر إطلاقاً في الحرب. كان شهر أيار، أيار فيينا يطفو فوق صفحة فناجين القهوة العربية المزدانة بالفضة، ويُذهِّب الشراشف وقطع الكاتو الزهرية والخضراء المحشوّة بالكريما الشبيهة بالجواهر الفريدة الصالحة للأكل. في ذلك اليوم من أيار المتألق، هتف سورغسام: «يا سادتي، الحرب لن تحدث!...»

أما الآن، فكان ستيلماتشر يشيح بعينيه الساهمتين عن أوراقه عديمة الفائدة. لم ينظر إليّ في الوجه لكن كفاه أن يرى بذلة وعَذَبَة وسيفاً ليهتف مردّداً: «تأهب!»، ثم ليضيف على الفور: «تفضل بالجلوس».

وعندما رآني أخيراً، قال:

ـ كم أنت أنيق! بالكاد عرفتك! فأنت تبدو في الثياب المدنية وكأنك... واهن قليلاً».

لكن صوته لم يعد شبيهاً بذلك الصوت الخافت الرنّان الذي كنت أعرفه به منذ سنوات. وبدت لي ممازحته مصطنعة. على كل حال، لم يكن يسمح لنفسه مرة أن يتلفظ بكلمة عامية واحدة. وإلاّ كان سيبقى سجين دغل شاربيه البرّاقين إلى أن ينطفىء في الصمت.

قمت بعرض سريع لمطلبي محاولاً أن أشرح له سبب رغبتي في الالتحاق بمجنّدي الكتيبة الخامسة والثلاثين. غير أن ستيلماتشر قاطعني قائلاً:

كان الانسحاب مفجعاً. لقد استعد لنا جيداً هؤلاء البلهاء! لكن هذا يكفي! إذهب الآن وحاول أن تجدهم، رفاقك في الكتيبة الخامسة والثلاثين. تمَّت الموافقة على نقلك ورقِّيت إلى رتبة ملازم أول. تأهب! انصرف!» ثم مدّ لي يده من فوق مكتبه مصافحاً. كانت عيناه الفاتحتان الحليقتان تقريباً، اللتان لا نستطيع أن نقرأ فيهما إلاّ النعاس والاسترخاء والتعب، توجهان إليَّ نظرة غامضة غريبة آتية من منطقة بعيدة جامدة. نظرة لا نستشف منها الحزن. لا، بل شيئاً ما أكثر كآبة من الحزن: اليأس. حاول أن يبتسم. لمع طقم أسنانه الكبير أكثر بياضاً تحت شاربيه الأسودين.

قال: «حاول أن ترسل لي بطاقة بريدية!»

ثم أكبَّ من جديد على أوراقه عديمة النفع.

ـ ١٧ ـ

في تلك الأيام، كان الكهنة يعملون بالسرعة نفسها التي يعمل بها الخبازون وتجار السلاح وصانعو القبعات العسكرية والبذلات. كان يفترض بنا أن نتزوج في كنيسة «دوبلنغ»، لأن الكاهن الذي عمَّد خطيبتي كان لا يزال على قيد الحياة، ولأن حماي يؤمن بالمشاعر

كما هم غالبية متعهدي الجيوش. كانت هديتي لأليزابيت هدية أمي في الحقيقة. لم أكن أفكر أن هدايا الزواج ضرورية إلى هذا الحدّ. حين عدت إلى المنزل لتناول الغداء ناسياً أني على موعد مع فطائر الخوخ، وجدت أمي جالسة أمام الطاولة. قبّلت يدها كالمعتاد فقبلتني في جبيني. أوصيت خادمنا أن يشتري لي من عند أوريان اقفاء أكمام خضراء غامقة ونجوم ضابط.

سألتني أمي: «هل غيّرت فرقتك؟

ـ نعم يا أمي. سأنتقل إلى الكتيبة الخامسة والثلاثين.

ـ وأين توجد هذه الكتيبة؟

ـ شرقي غاليسيا.

ـ سترحل غداً؟

ـ بعد غد.

ـ ستقيم حفل الزفاف في الغد إذن؟

ـ نعم يا أمي».

جرت العادة خلال تناولنا الطعام أن نُطري على المآكل وإن كانت غير ناجحة. وعلى هذا الثناء أن يكون بعيداً عن التفاهة وجريئاً ومتفذلكاً إلى أبعد حدّ، كنت أقول إن هذا الحساء مثلاً يذكرني تماماً بحساء آخر تناولته ذات يوم ثلاثاء قبل ست أو ثماني سنوات. أو أن الخيار منسجم تماماً مع طبق الأضلاع. لكني بقيت صامتاً أمام فطائر الخوخ. ثم قلت أخيراً لجاك:

ـ «عند عودتي، أريد أن تقدم لي الفطائر ذاتها. تماماً الفطائر ذاتها».

نهضت أمي عن الطاولة قبل أن تتناول القهوة. وهذا لم يكن من ضمن عاداتها إطلاقاً. ثم رجعت من غرفتها الصغيرة وفي يدها علبتا جواهر من جلد الماعز المصبوغ بالأحمر. رأيت مرات كثيرة هاتين العلبتين وأعجبت بهما، لكني لم أجرؤ مرةً على أن أسأل أمي عن محتواهما. ليس لأن الفضول كان ينقصني، بل لأن وجود سرّيْن بعيديْ المنال في جواري، كان يمنحني سعادة لذيذة. وها هما أخيراً يتكشفان لي. كانت العلبة الصغيرة تحتوي صورة صغيرة لأبي داخل إطار ذهبي مزخرف؛ كان شارباه الكبيران وعيناه السوداوان المتوقدتان المتحمستان قليلاً وربطة عنقه الثقيلة المطوية بعناية والملتفة حول قبة مستعارة عالية جداً. كل هذا كان يجعل منه شخصاً غريباً بالنسبة لي. لا شك أن هيئته كانت هكذا قبل أن أولد. وفي هذه الصورة بالذات بقي حياً وعزيزاً وأليفا في ذاكرة أمي. أما أنا فكنت أشقر وعيناي زرقاوان يشوبهما دائماً تعبير مرتاب، مرتاب وحزين وحذر، تعبير لا سذاجة فيه ولا تعنت. ومع ذلك، قالت لي أمي:

ـ «خذ هذه الصورة، فأنت تشبهه تماماً».

شكرتها وأخذت هديتها. كانت أمي امرأة ذكية ونافذة البصيرة. لكني عرفت في هذه اللحظة أنها لم تنظر إليَّ كما ينبغي. بالطبع كانت تشعر حيالي بحب متأجج، غير أن هذا الحب كان موجهاً إلى إبن زوجها لا إلى إبنها هي. كانت امرأة ترى فيَّ وريث ذلك الذي كانت تحبه، ترى فيَّ الإبن الذي أعطاه القدر لحبيبها، ولم تحبل به إلاّ صدفة.

فتحت العلبة الثانية. فوق مخمل أبيض كالثلج، ثمة جوهرة كبيرة من المرو البنفسجي مصقولة من ست جهات ومعلقة إلى سلسلة

ذهبية رفيعة جداً، بدت الجوهرة بالمقارنة مع السلسلة ذات جبروت وعظمة. لم تكن تعطي الانطباع بأنها معلّقة إلى هذا الخيط الذهبي بل كأنها امتلكته عنوة وجرّته وراءها مثل عبد ضعيف خنوع.

قالت أمي: «هذه الهدية لخطيبتك. قدّمها إليها اليوم».

قبّلت يد أمي وأدخلت العلبة الثانية أيضاً في جيبي.

وفي هذه اللحظة جاء خادمنا الخاص ليعلمنا بزيارة حمّي وإليزابيت.

قالت أمي: أدخلهما إلى الدار. هاتِ مرآتي!».

فأتاها جاك بمرآة صغيرة بيضاوية الشكل، نظرت إليها طويلاً دون أن تتحرك. ذلك أن النساء في زمانها لم يكن بحاجة إلى ترتيب أثوابهن ووجوههن وشعورهن مستعينات بأصابعهن العارية وبالمساحيق والبودرة والأمشاط. أستطيع القول إن أمي كانت تأمر بأن يعود الترتيب والأناقة لتسريحتها ووجهها وثوبها، لا بشيء إلاّ بنظرة من عينيها اللتين تريان صورتها في المرآة. ومن دون أن تحرّك ساكناً، كان كل تعبير بالألفة والمودة يختفي فجأة من وجهها لدرجة أحسست معها أنني في حضرة سيدة غريبة.

ثم قالت لي: «هيا، أعطني عصاي».

كانت عصاها الرفيعة المصنوعة من خشب الأبنوس تستند بمقبضها الفضّي إلى الكرسي. لم تكن تستخدمها لتتكىء إليها بل كدلالة على الوقار.

كان حموي يرتدي «ردنغوتا» وقفازات ؛ فبدا مجنَّداً أكثر منه متأنقاً. وأليزابيت ترتدي ثوبها الرمادي العالي حتى الرقبة وعلى

صدرها صليب فضي. كانت تبدو أطول من العادة وشاحبة مثل عقدة حزامها الفضية الكامدة. وقفا مستقيمين جامدين حين دخلنا. ثم انحنى حموي وأثنت أليزابيت ركبتيها احتراماً. قبّلتها من دون تردّد، فالحرب كانت تعفيني من كل طقس غير ضروري.

قال حموي: «هلا عذرتما تطفلنا».

فاستدركته أمي، وهي توجه نظراتها إلى أليزابيت، قائلة:

ـ «على العكس، إنها زيارة لطيفة».

فأضاف بلهجة مازحة:

«أسابيع قليلة ويعود».

كانت أمي تستوي على كرسي قديم الطراز ضيق وجامد. وكان جذعها مشدوداً كأنه داخل درع.

أجابته وهي تتابع النظر إلى أليزابيت: «نعرف أحياناً متى نذهب. لكننا لا نعرف أبداً متى نعود».

ثم أمرت بإحضار القهوة والمشروبات الكحولية والكونياك. لم تبتسم لحظة واحدة. غير أنها في وقت ما، أخذت توجه نظراتها إلى جيب سترتي، حيث كنت وضعت علبة الجوهرة. فهمت قصدها. ومن دون أن أنبس بكلمة، تقدمت من خطيبتي ووضعت العقد حول عنقها. حَجَبت الجوهرة الصليب. ابتسمت أليزابيت وذهبت باتجاه المرآة فيما كانت أمي تبدي إعجابها بإشارة من رأسها. انتزعت أليزابيت الصليب، فعكست عندئذ جوهرة المرو لوناً بنفسجياً غامقاً فوق الثوب الرمادي يشبه دماً متجمداً فوق أرض متجلدة. أشحت بنظري.

نهض الضيوف. عانقت أمي أليزابيت لكن من دون أن تقبلها.

ثم قالت لي: «رافق السيد والآنسة».

وأضافت:

«أنا في انتظارك هذا المساء. أرغب في معرفة موعد زواجك. لدينا على العشاء سمك طنش مظهو بالنبيذ الأحمر».

لوّحت بيدها كما تفعل الملكات بمراوحهن. ثم توارت.

حين صرنا على الطريق، في السيارة ـ التي أطلعني حموي، وهو لم يكن يتنقل إلاّ في السيارة، على إسم ماركتها ولكني لم أحفظه ـ علمت بأن كل شيء قد رتب في كنيسة «دوبلنغ». أما الموعد فلم يُبت بشأنه بعد. ربما الساعة العاشرة صباحاً. وقد عيّن زلينسكي وهايدغو اشبينين. «سيكون حفل الزواج بسيطاً، بساطة عسكرية»، هكذا كان يقول حموي.

في المساء، حين كنا نأكل سمك الطنش ببطءٍ وحذر، أخذت أمي تتحدث، وللمرة الأولى، منذ أن كانت سيدة هذا البيت، عن أشياء جدية. كنت أمدح السمك حين قاطعتني قائلة:

ـ «ربما هذه هي المرة الأخيرة التي يجلس فيها واحدنا في جوار الآخر. هل ستقوم بتوديع أصدقائك؟»

ـ نعم يا أمي.

ـ إذاً إلى اللقاء. أراك في الغد.

رافقتها حتى باب غرفتها. توارت دون أن تلتفت.

ثم ذهبت بالفعل لأقوم بتوديع أصدقائي. أو بالأحرى ذهبت في

كل ناحية لألتقي بأحد ما أعرفه هنا وهناك. كان الناس في الشوارع يطلقون صيحات غير مفهومة. وحين أتريث بضع دقائق لأفهم معناها، كانت تختفي في الحال. من حين لأخر، كانت فرق موسيقية غجرية وأخرى شعبية تعزف في مقاهٍ شبه بورجوازية «مسيرة رادتزكي» و«مرحى أيتها النمسا». كان الجميع يحتسون البيرة، وبعض ضباط الصف يقفون لدى دخولي. كان المدنيون أيضاً يحيّونني رافعين كؤوسهم. عندئذٍ شعرت أنني الوحيد الذي ليس ثملاً في المدينة الكبيرة كلها، وأحسست أني غريب فيها. أجل، كانت مدينتي الأليفة تنحسر عني، وتبتعد أكثر فأكثر مع كل لحظة تمر. كانت الشوارع والأزقة والحدائق العامة، مهما كانت غاصة بالناس وصاخبة، تبدو لي مقفرة ميتة كما وجدتها بعد عودتي من الحرب. تجوّلت حتى الفجر ونزلت في غرفة في فندق «البريستول» القديم. ونمت لبضع ساعات نوماً مضطرباً أصارع باستمرار أفكاراً ومشاريع وذكريات. عندما أفقت، ذهبت إلى وزارة الحربية حيث أعلموني بأخبار جيدة. ثم استقليت سيارة للذهاب إلى ثكنتنا. وهناك، ودّعت بولي، رئيس كتيبتنا واستلمت أمراً بالخدمة يمكنني بموجبه أنا الملازم تروتّا ـ هكذا بدأوا ينادونني ـ أن التحق بالفرقة الخامسة والثلاثين. بعد ذلك اتجهت إلى «دوبلنغ» وعلمت أن زواجي سيجري في العاشرة والنصف. فذهبت لأعلم أمي وأوافي أليزابيت.

تذرّعنا بأن أليزابيت سترافقني لمسافة صغيرة من الطريق. قبلتني أمي على جبيني كالعادة وهي في هيئة قاسية وباردة. ثم اندفعت مسرعة باتجاه عربتها، مع أنها كانت تتحرك ببطء عادة. كانت العربة مقفلة. وقبل أن تنطلق العربة، رأيت أمي تسدل بسرعة الستارة الخلفية للنافذة الصغيرة. فشعرت أنها كانت تبكي في عتمة

العربة المقفلة. أما عمي فقد قبّلنا نحن الإثنين بنشاط ولامبالاة. كانت حنجرته تحتوي آلاف العبارات عديمة الفائدة. كانت هذه العبارات تنزلق بسهولة وتتلاشى على الفور وكأنها روائح. افترقنا عنه بطريقة مجافية بعض الشيء، فهتف لنا: «الآن، أدعكما لوحدكما!»

كان على أليزابيت أن ترافقني باتجاه الشرق. لكننا سرنا، خلافاً لذلك، باتجاه «بادن». كانت لدينا ست عشرة ساعة أمامنا... ست عشرة ساعة طويلة، كاملة، حافلة بالأشياء... ست عشرة ساعة قصيرة هاربة.

ـ ١٨ ـ

ست عشرة ساعة. منذ أكثر من ثلاث سنوات وأنا مغرم بأليزابيت لكن الست عشرة ساعة بدت لي، خلافاً لما هو متوقع، طويلة بالمقارنة مع السنوات التي مرّت. ربّما لأن الأشياء المحظورة تمرُّ مسرعة فيما الأشياء المحلّلة مطبوعة بختم الزمن. وفضلاً عن ذلك شعرت أن أليزابيت بدأت تتغير، أو على الأقل في طريقها لأن تتغير. فكرت بحميٍّ ولاحظت شبهاً غريباً بينهما. رأيت

أن أليزابيت قد ورثت عنه بعض حركات اليدين التي كانت صورة طبق الأصل نقية وبعيدة لحركات يدي أبيها. وشعرت، في الحافلة الكهربائية في بادن، بأن بعض حركاتها وتصرفاتها كانت تؤذيني بعض الشيء.

لم يمضِ على رحلتنا عشر دقائق، حتى أخرجت كتاباً من صندوقها الصغير. كان موضوعاً إلى جانب حقيبة زينتها فوق الملابس الداخلية. وعلى الفور فكرت بقميص النوم العرسي. وفكرة أن كتاباً ما يمكن أن يلتصق بقميص النوم هذا شبه المقدس، بدت لي إهانة. وفوق ذلك، كان الكتاب يتضمن مجموعة قصص قصيرة. وهو من أعمال أحد الكتاب الهزليين في ألمانيا الشمالية، الذين كانوا يشيعون في فييّنا آنذاك، كما كانت تشيع أيضاً نزعتنا اللويولية(*) بنيبلوفغن واتحاد المدارس الألمانية والمحاضرون في جامعات «بوميراني» و«دانتزع» و«كونيغسبرغ» و«مكلمبورغ»، فرحهم الحزين كالمطر، والذين كانت سهولتهم المزعجة قد بدأت تصبح قدوة للجميع. من وقت لآخر، كانت أليزابيت ترفع عينيها وتنظر إليّ ثم تلقي نظرة عبر النافذة وهي تكتم تثاؤبا وتعود بعد ذلك لتتابع قراءتها من جديد. كانت تشبك ساقيها بطريقة بدت لي حقاً غير محتشمة. سألتها هل كان الكتاب يعجبها. فأدلت برأي لا رجوع فيه: «مضحك»، وناولتني الكتاب. بدأت اقرأ في منتصفه إحدى القصص السخيفة التي يدور موضوعها حول «ظرف» أوغست لافور وعلاقاته العاطفية بإحدى وصيفات الشرف «الجريئات». وكانت هاتان الكلمتان تعطيانني فكرة كافية جداً عن محتوى الكتاب. قلت

(*) نسبة للقديس إ ينياسيوس ورلويولا.

لأليزابيت: «نعم إنه ظريف وجريء» ضحكت وعادت للانغماس من جديد في قصتها. كنا ذاهبين إلى فندق «الأسد الذهبي». كان خادمنا العجوز الوحيد على علم بمشروع نزولنا في «بادن»، وكان في انتظارنا هناك. اعترف لي فوراً أنه أخبر أمي بالأمر. كان يقف عند آخر الحافلة الكهربائية وفي يده قبعته العالية الرسمية التي ورثها عن أبي بالتأكيد. قدّم لزوجتي باقة من الورود الحمراء. كان يحني رأسه الأصلع فتنعكس الشمس فوقه مثل نجمة صغيرة أو كمثل قطعة فضة صغيرة. بقيت أليزابيت صامتة. فكرت: «على الأقل، كان عليها أن تقول كلمة شكر صغيرة». دام الاحتفال الصامت طويلاً. بقيت حقيبتانا على الرصيف. ضمّت أليزابيت الورود إلى صدرها وجزدانها لا يزال في يدها. سألنا العجوز بماذا يمكنه أن يخدمنا. نقل إلينا تحيات أمي الودّية، وأعلمني أن حقيبة سفري وبذلتي الثانية وثيابي الداخلية موجودة في الفندق. فأجبته: «شكراً لك». لكن لاحظت أن أليزابيت تقف بعيداً عنا، فأزعجتني هذه الطريقة في الانسحاب والتملص. قلت لجاك:

- «تعال معنا إلى الفندق، أريد أن أقول لك شيئاً.

- حسناً يا سيدي».

حمل حقيبته وتبعنا. ثم توجهت إلى أليزابيت قائلاً:

- «أريد أن أتحدث قليلاً مع جاك العزيز. سأوافيك بعد نصف ساعة.»

دخلنا إلى المقهى. احتفظ بقبعته فوق ركبتيه. فأخذتها منه بلطف ووضعتها على الكرسي قربه. كانت عينا جاك العجوز البعيدتان، بأزرقهما الشاحب، والرطبتان قليلاً، تسكبان عليَّ كل حنانه. وكأنَّ

أمي أيضاً قد ضمَّنت هاتين العينين رسالة أمومية أخيرة. كانت يداه المصابتان بالنقرس ـ كان مضى عليَّ زمن طويل لم أرهما عاريتين دون قفازات بيضاء ـ ترتجفان وهما تمسكان بفنجان القهوة. يدان هرمتان وطيبتان وخدومتان. كانت هناك عقد صغيرة مزرقة تكلل مفاصل الأصابع التي تشوهت. وكانت الأظافر مسطحة وقصيرة ومشققة، وبدا عظم الرسغ النافر إلى الخارج وكأنه غير قادر على حمل الطرف الجامد للكُمّ المستدير إلاّ بصعوبة. كانت هناك شرايين صغيرة لا تحصى زرقاء شاحبة مثل سَواقٍ منمنمة تشق بعناء طريقاً لها تحت الجلد المتشقق.

كنا جالسين في حديقة «أستوريا». سقطت ورقة يابسة وحامت ببطء فوق رأس جاك الأصلع. لم ينتبه لها. كان جلده العجوز قد فقد حساسيته. بيد أني لم أنتزع الورقة عن رأسه.

سألته: «كم هو عمرك؟

ـ ثمانٍ وسبعون سنة يا سيدي»..

لمحت، حين كان يجيبني، سنّاً وحيدة، سنّاً كبيرة صفراء تحت شاربه الأبيض الكثّ. ثم تابع يقول:

ـ «أنا من يجدر به أن يذهب إلى الحرب، لا الشباب. لقد حاربت وأنا في السبعين ضد بروسيا مع الفرقة الخامسة عشرة.

أين ولدت؟

ـ في «سيبولج».

ـ هل تعرف آل تروتّا؟

ـ بالطبع. أعرفهم كلهم دون ستثناء!

ـ هل تتكلم السلوفينية؟

ـ نسيتها يا سيدي، نسيتها.

لقد قلت لأليزابيت. «بعد نصف ساعة». لكنني وجدت نفسي متردّداً في النظر إلى ساعتي. ربّما مرّت ساعة على الأقل. ومع ذلك لم أستطع أن أفارق العينين الشاحبتين اللتين يسكن فيهما كل عذاب قلب جاك وقلب أمي. بدا لي الآن أنه عليَّ أن أجمع في ساعة واحدة كل السنوات الثلاث والعشرين لحياتي التي بددتها طائشاً ودون حنان. كان عليَّ، بَدَلَ أن أبدأ بصفتي عريساً جديداً ما أتفق على تسميته حياةً جديدة، أن أحاول خلافاً لذلك إصلاح حياتي القديمة. تمنيت لو استطيع إرجاع حياتي من البداية. كنت أعي بوضوح إهمالي لما هو أساسي، لكن الوقت قد فات الآن، كنت موضوعاً في مواجهة الموت وفي مواجهة الحب. ومع ذلك، خطر في بالي للحظةٍ ـ أعترف بذلك ـ أن أقوم بعمل معيب وسافل. كأن أبعث برسالة صغيرة لأليزابيت أخبرها فيها أنه عليَّ أن أذهب دون أن أتأخر إلى الجبهة. كنت قادراً أيضاً، على أن أقول لها ذلك بصوتي وأنا أقبِّلها وأُمثِّل عليها الأسى واليأس. لكن هذا الزيغ لم يدم إلاّ لحظة فقط، تمالكت بعدها أعصابي على الفور. غادرت مقهى أستورياً وتبعني جاك على بعد نصف خطوة مني تماماً.

حين وصلت بالقرب من الفندق، استدرت لأودع خادمي العجوز بشكل نهائي. سمعت حشرجة. التفت نصف التفاتة ومددت يدي فسقط جاك على كتفي. وتدحرجت قبعته العالية على الرصيف محدثة ضجة خرساء. هرع البوّاب. كان العجوز مغمياً عليه. فحملناه إلى القاعة. ثم أمرت باستدعاء طبيب وذهبت لأخبر أليزابيت.

كانت لا تزال منكبة على قراءة كتابها الهزلي وكانت أثناء ذلك تشرب الشاي حاملة قطعة خبز محمصة إلى فمها الزهري الحبيب. وضعت الكتاب جانباً وفتحت لي ذراعيها. تمتمتُ:

ـ «جاك... جاك...»

توقفت عن الكلام. لم أرد أن ألفظ الكلمة الرهيبة الحاسمة. لكن ابتسامة رسمت فوق شفتي أليزابيت، ابتسامة شهوانية، مداعبة، لا مبالية فلم استطع محوها إلاّ بكلمة جنائزية.

قلت: «إنه يموت».

أرخت أليزابيت ذراعيها مكتفية بالقول:

ـ «هذا ما يحدث عادة لمن هم في عمره!»

جاء أحدهم يعلمني بأن الطبيب قد حضر. كان العجوز مستقلياً على سرير في إحدى الغرف. كانوا قد نزعوا عنه قميصه السميك. فتدلّت فوق سترته الطويلة وكأنها درع من القماش اللامع. كانت فردتا الجزمة الملمَّعتان جيداً موضوعتين على السجادة أمام السرير، وقربهما تنبسط رخوةً الكلسات الصوفيّة المرتقة بكثرة. كانت هناك بضع أزرار نحاسية صفراء على طاولة السرير وربطة عنق وفردتا جزمة وكلسات وسترة طويلة وبنطلون وقميص: كل ما تبقى من رجل بسيط. كانت قدما العجوز بأصابعهما المشوّهة تخرجان من تحت الغطاء. قال الطبيب: «إنها نوبة». كان الطبيب متطوعاً في الجيش ويرتدي بذلة رئيس أطباء. جرى تعارفنا حسب الطريقة العسكرية، وكان يشبه فوق سرير هذا المنازع مسرحية تقدمها فرقة فيينا ـ نويشتات. كنا كلينا منزعجين. ثم سألته.

ـ «هل سينجو؟

فسألني الرائد:

ـ هل هو أبوك؟

ـ لا خادمنا».

كم كان أولى بي أن أقول إنه أبي. يبدو أن الدكتور قد لاحظ ذلك. فقال:

«ـ من المحتمل أن يموت.

ـ هذه الليلة؟»

فرفع الدكتور ذراعين متسائلتين.

كان المساء ينزل سريعاً. وجبت إضاءة الأنوار. حقن الدكتور جاك حقنة، ثم كتب وصفة. قرع الجرس وأرسلها مع أحدهم إلى الصيدلي. خرجت منسلاً من الغرفة «مثل سارق»، كما كنت أقول في نفسي. ثم صعدت إلى غرفة اليزابيت بخطئ رشيقة كأنني خائف من أن أوقظ أحداً. وجدت الباب مقفلاً بالمفتاح. كانت غرفتي ملاصقة لغرفتها. قرعت ثم حاولت أن أدفع الباب. لكن زوجتي كانت أقفلت الباب المشترك. أخذت أتساءل هل عليّ أن ألجأ إلى القوة. وفجأة شعرت بأنه لم يعد هناك حب بيننا. ورحت أعدُّ مائتين إثنين: الأول حبُّنا وقد دفنته تحت عتبة الباب المشترك لغرفتينا. ثم نزلت من جديد طابقاً لأحضر لحظات جاك الأخيرة.

كان لا يزال الدكتور الطيِّب بقربه. كان قد نزع سيفه وفك أزرار سترته. ملأت الغرفة رائحة خل وأثير وكافور ممزوجة بالعطر الرطب والذابل لسهرة خريفية، يدخل عبر النوافذ المفتوحة. قال لي

الرائد: «سأبقى إلى جانبه». ثم شدَّ على يدي. أبرقت لأمي أعلمها أنه عليَّ الاعتناء بخادمنا حتى رحيلي. تناولنا عشاءنا المؤلف من جامبون وجبنة وتفاح مع زجاجتي «ناسدورفر».

كان العجوز راقداً فوق سريره، وجهه ضارب إلى الزرقة، وتنفسه يئز في الغرفة مثل صرير منشار صدىء. من حين لآخر، كان جذعه يشب ويداه الملتويتان تجذبان الغطاء الأحمر. وكان الدكتور يبلّل منشفة حمام بالخلّ ويضعها على جبين المحتضر. أثناء ذلك، صعدت مرتين إلى أليزابيت، في المرة الأولى، بقي كل شيء صامتاً. وفي المرة الثانية، سمعت زوجتي تنتحب. قرعت بقوة أكثر. صاحت: «أتركني وشأني!». اخترق الباب صوتها مثل طعنة سكين.

ربما كانت الساعة تقارب الثالثة صباحاً. كنت جالساً عند حافة سرير جاك. كان الطبيب ينام فوق المكتب واضعاً رأسه بين ذراعيه وخالعاً سترته. عندئذٍ انتفض المحتضر وقد تشنجت يداه. ثم فتح عينيه وقال شيئاً ما. للحال استيقظ الرائد واقترب منه. وإذ ذاك سمعت صوت خادمنا، صوته القديم الرنَّان:

ـ «أرجو أن يتكرم سيدي ويقول لسيدتي إني راجع غداً».

ثم هوى فوق وسادته. هدأ تنفسه وبقيت عيناه شاخصتين، واسعتين وكأنهما لم تعودا بحاجة إلى الأجفان. وفيما كنت أهم للرجوع إلى جوار أليزابيت، قال لي الدكتور: «هذه هي النهاية».

فانتظرت. كان الموت يقترب من العجوز بحذر لامتناه، بحنان ملاك حقيقي. ثم، عند الساعة الرابعة، حملت الريح إلى الغرفة ورقة كستناء ذابلة صفراء. فالتقطتها ووضعتها فوق غطاء جاك. أحاطني

الدكتور بذراعيه، ثم انحنى فوق المريض وأرهف السمع. أمسك يده وقال لي بصوت منخفض: «انتهى كل شيء». فسجدت راسماً إشارة الصليب، الإشارة الأولى منذ سنوات وسنوات.

بعد دقيقتين قرع الباب. دخل البوّاب الليلي وأعطاني رسالة قائلاً: «من جانب السيدة». كان الظرف شبه ملصق فانفتح من تلقاء ذاته. قرأت سطراً واحداً: «الوداع. سأرجع إلى عند أبي. أليزابيت».

مررّت الرسالة إلى الدكتور المجهول. قرأها ثم نظر إليّ قائلاً:

ـ «أفهم».

ثم أضاف بعد لحظة:

ـ «سأهتم بكل شيء. الفندق والدفن والسيدة أمك. لأني سأبقى بعض الوقت في فيينا. إلى أيّ جهة ستذهب اليوم؟

ـ شرقاً.

ـ تأهب!»

لم أرَ الدكتور مرة ثانية. لكني لم أنسه قط. كان يدعى غرونهوت.

ـ ١٩ ـ

انطلقت إلى الجبهة «بوسائلي الخاصة». على إثر ردّة فعل أولية أثارها الغرور المجروح وحب الانتقام والعدائية ـ من يدري؟ ـ دعكت رسالة زوجتي وأدخلتها في جيبي. ثم، من جديد أخذت كريَّة الورق وملّستها وقرأت الجملة الوحيدة. وعيت جيداً مقدار ذنبي تجاه اليزابيت. لا بل بدت لي جريمتي بعد تفكير مليّ من الجرائم الأكثر خطورة. فقررت الكتابة إلى زوجتي ورحت أبحث عن ورقة داخل حقيبتي. لكن، عندما أفرغت حوائجي وسحبت ورقة ـ ما كنّا في تلك الأيام نذهب إلى الريف مجهزين بحافظة جلدية تحتوي ورقاً نشّافاً ـ عكست الورقة الزرقاء على وجهي مزاجي السيء. شعرت أن هذه الورقة البتول تتضمن كل ما كنت أرغب في قوله. وأنه يكفي أن أبقيها كما هي ملساء عارية دون أن أضيف أي شيء آخر. كتبت عليها إسمي فقط وأرسلتها في البريد عند أول توقف لقطار. مرةً أخرى، دعكت رسالة زوجتي وأدخلت كريّة الورق في جيبي.

كنت قد أُحِلْتُ، بموجب جواز المرور الذي وضعته وزارة

الحربية ووقّع عليه ستيلماتشر، إلى الكتيبة الخامسة والثلاثين لجنود الاحتياط. وهذا يعني أنه كان عليّ أن أنضم حالاً إلى فرقتي دون أن أمر بمكتب المجندين الجدد، الذي انكفأ نتيجة للأحداث، إلى المنطقة الخطرة في الداخل؛ كنت أجد نفسي، إذاً، موضوعاً أمام مهمة معقدة بما فيه الكفاية، وتقضي بأن أعثر في مكان ما، في قرية أو في غابة أو في دسكرة، باختصار في موقع ما، على جيش متشتت. وهذا يعني أيضاً أنه كان عليَّ خلال تجوالي «أنا شخصياً» ان أجمع شتات وحدة تائهة ومهزومة. كان جلياً أن هذا الأمر لم نتعلمه خلال التدريبات العسكرية.

كان هذا الهم الذي يشغلني جسداً وروحاً منفذاً بالنسبة لي. فاحتميت به بشكل كلي. فبهذه الطريقة لن يعود متوجباً عليَّ أن أفكر بأمي أو بزوجتي أو بموت خادمنا المسكين. كان القطار يتوقف كل نصف ساعة في محطة صغيرة غير ذات أهمية. كنت أسافر برفقة ملازم أول في مقصورة ضيقة مثل علبة كبريت حقيقية. اقتضى الوصول إلى «كاميونكا» حوالى ثماني عشرة ساعة. وابتداءً من هناك، كانت السكك الحديدية العادية مدمّرة. فقط كان هناك قطار صغير متعرّج السير، مؤلف من مقطورتين مكشوفتين، لا يزال في إمكانه أن يقود إلى آخر مكتب عسكري قادر ـ لكن من دون أن يأخذ الأمر على عاتقه ـ على إرشاد هؤلاء الذين ينتقلون «بوسائلهم الخاصة» إلى المواقع المؤقتة لبعض الفرق. كان القطار يتقدم ببطء، والميكانيكي يقرع دون توقف، لأن جماعات من الجرحى كانوا يأتون في اتجاهنا بمحاذاة الطريق الضيقة، مشياً على الأقدام أو داخل عربات جرّ فلاّحية. كانت رؤية ذوي الجروح الخطرة الممدّدين فوق حمّالات نتيجة لطلقة رصاص مزقت أقدامهم أو

سيقانهم، تبدو لي أقل إيلاماً من منظر الجنود ذوي الإصابات السطحية الذين يتقدمون بخطى متثاقلة والدم ينزف دون توقف من ضماداتهم البيضاء. أثناء ذلك، وعلى كل جهة من السكك الحديدية، وهناك في الحقول التي أذبلها الخريف، جنادب متأخرة تواصل إرسال صريرها ـ لأن الحرارة الخادعة لسهرة أيلول كانت توهمها بأن الصيف لا يزال مستمراً أو بأنه كان يبدأ من جديد.

وقعت صدفة، في المكتب العسكري، على المرشد الروحي للفرقة الخامسة والثلاثين. كان رجل الله السمين السعيد بنفسه مشدوداً داخل بذلة ضيقة رثّة. كان قد تَاهَ أثناء تراجع الجنود مع مرافقيه والحوذي والعربة المقفلة التي يسكن فيها، إلى جانب المذبح وحاجات العبادة وبعض الدجاج وقناني العرق والعلف لحصانه، أي جميع الأشياء التي يمكن مصادرتها إجمالاً من المزارعين. حيّاني وكأنني صديق كان قد حُرم من رؤيته لفترة طويلة. كان يخشى حدوث محن جديدة، ولم يكن في مقدوره أن يتخلّى عن دجاجة إلى قائد المركز حيث كانوا يقتاتون منذ عشرة أيام من المعلبات والبطاطا. لم يكن المرشد الروحي محبوباً هناك، ومع ذلك كان يرفض الذهاب على غير هدىً أو وفقاً لتعليمات غير أكيدة. فيما أنا كنت أفكر بقريبي جوزف برانكو وصديقه مانيس ريزيجر، مفضِّلاً التهوُّر على الانتظار. وحسب هذه التعليمات غير الدقيقة، فإن مجنّدي الفرقة الخامسة والثلاثين يفترض بهم أن يكونوا على بعد ثلاثة كيلومترات شمالي «برزيزاني». انطلقت إذاً بمعيَّة المرشد الروحي وعربته ودجاجه من دون خارطة، مزوّداً فقط ببيان سير مرسوم بخط اليد.

انتهى بنا الأمر إلى اكتشاف مواقع الفرقة الخامسة والثلاثين،

ليس شمال «برزيزاني» بالطبع، بل في بلدة «ستروميلس. ذهبت لأقدم نفسي إلى العقيد. كان قرار ترقيتي إلى ملازم أول في متناول الرقيب. طلبت أن أرى صديقيَّ وأن ينضمَّا إلى فصيلتي. وأخيراً حضرا، لكن في أية حالة! كنت انتظرهما في مكتب الرقيب الأول سينوير، دون أن يعرفا أنني أنا الذي أرسلت في طلبهما. لأول وهلة لم يعرفاني إطلاقاً. لكن، بعد لحظة، كان ماينس ريزيجر قد قفز إلى عنقي من دون احتفال بالأوامر العسكرية، فيما بقي قريبي ملتزماً الحذر تردعه الدهشة والانضباط. والسبب أن جوزف برانكو سلوفيني، أما مانيس ريزيجر فهو حوذي يهودي شرقي غير مبالٍ أو مؤمن بالتعليمات. صارت لحيته مؤلفة من كبب شعر صغيرة عصيّة وقاسية. لم يكن يبدو عليه أنه يرتدي بذلة عسكرية بل ثياباً تنكرية. قبّلت إحدى كبب لحيته، ثم انتقلت إلى تقبيل جوزف برانكو. أنا، أيضاً، كنت قد نسيت الانضباط ولم أعد أفكر إلاّ بالحرب. هتفت عشر مرات متتالية:

ـ أنتم أحياء ترزقون! أحياء ترزقون!»

لاحظ جوزف برانكو في الحال خاتمي، وأشار إلى يدي دون أن ينبس بكلمة.

قلت: «نعم. لقد تزوجت».

أحسست أنهما يريدان أن يعرفا أكثر من ذلك عن زواجي وعن زوجتي. خرجت برفقتهما وذهبنا إلى المنتزه المشجَّر الصغير الذي يحيط بكنيسة «ستروميلس» ولكنني لم أتحدث عن أليزابيت إلا في اللحظة التي تبادر فيها إلى ذهني ـ كيف أمكنني نسيان ذلك؟ ـ وجود صورتها في حافظة أوراقي، إن الطريقة الفضلى لاختصار

الأحاديث التافهة هي إظهار صورتها لرفيقي. أخرجت محفظتي لأفتش عنها. لم أجد الصورة. تساءلت أين بإمكاني أن أكون قد نسيتها أو أضعتها. خلت أنني تركتها عند أمي في البيت. واعتراني خوف لا يفسر، خوف مجنون كأن أكون قد مزقت رسم زوجتي أو أحرقته.

ثم قلت لصديقيّ: «لم أجدها»

وعلى سبيل الجواب، أخرج قريبي صورة من جيبه وبسطها باتجاهي. كانت صورة لامرأة جميلة شامخة ممتلئة الجسم. وكانت ترتدي ثوباً ريفياً وتضع تاجاً من القطع النقدية فوق شعرها، وعقداً من القطع ذاتها حول عنقها. كانت ذراعاها عاريتين ويداها مسندتين إلى وركيها. قال لي جوزف برانكو:

هذه أم ولدي. إنه صبي.

فسأله الحوذي: وهل أنت متزوج؟

سأتزوج منها عندما تنتهي الحرب. إبننا يدعى برانكو مثلي. له من العمر عشر سنوات ويُقيم عند جده. وهو يعرف كيف ينحت صفّارات مدهشة».

ـ ٢٠ ـ

كانت الأيام المقبلة تشرع أمامنا آفاقاً واسعة، منذرة بالخطر، قاتمةً وعظيمة، غريبة وغامضة. ولم يكن علينا أن ننتظر، استناداً لجميع التوقعات، معركة من أيِّ نوع كانت، بل فقط أمراً بالتراجع. استغرقت رحلتنا من «ستروميلس» إلى قرية «جيزيوري» يومين بالكاد، وإلى المدينة الصغيرة «بوغرودي» ثلاثة أيام. لكن الجيش الروسي طاردنا وأجبرنا على الانسحاب حتى «كراسنه ـ باسك»، وبقينا هناك أكثر مما كان في نية الأوامر العليا أن تبقينا. حتى فاجأنا العدو ذات يوم عند الصباح الباكر، دون أن يكون لدينا وقت لنستعد. وكانت تلك معركة «كراسنه ـ باسك» التاريخية حيث أبيد ثلث فرقتنا ووقع ثلثها الثاني قيد الأسر. وتمَّ اعتقالنا أنا وجوزف برانكو ومانيس ريزيجر. وهكذا انتهت معركتنا الأولى من دون انتصار.

ربما كان يفترض بي هنا أن أعرض للأحاسيس التي تلهم أسرى الحرب. ولكني لا أعرف مقدار ما يلاقيه هذا النوع من

القصص اليوم من اللامبالاة. أتقبل طوعاً قدري كميّت، لكني لا أستطيع القبول بأن أصير راوي أشياء ميتة. بالكاد سأُفهم اليوم لو شرعت في الكلام عن الحرية مثلاً، أو عن الشرف. فكيف بالأحرى عن الأسر. الأفضل لي والحالة هذه السكوت مؤقتاً. فأنا لا أكتب إلاّ لأرى بوضوح في داخلي ولأستغرق في ذكر الله. فليغفر لي الله هذه الخطيئة.

إذن، لقد وقعنا قيد الأسر كما سبق لي أن قلت. فصيلتي بأكملها. بقي جوزف برانكو ومانيس ريزيجر معي. فقد جرى اعتقالنا سوية.

كان الحوذي يقول:

ـ ها إن الحرب قد انتهت بالنسبة لنا.

ويضيف أحياناً:

«لم يسبق لي أن أُسرت، ولا أنتما أيضاً. لكني واثق من أن الحياة هي التي في انتظارنا، لا الموت. ستتذكران هذا القول غداً حين نعود إلى ديارنا. لو أني فقط أعرف ما هي أخبار ولدي إفراييم! ربما ستكون الحرب طويلة وسيضطره الأمر للالتحاق بالجيش، هو أيضاً. تذكرا جيداً ما أقوله لكما، أنا الحوذي البسيط من «زلوتوغرود».

وعلى ذلك كان يبقى صامتاً أبكم طيلة الأسابيع التالية.

في مساء الثاني من تشرين الأول، كان علينا أن نفترق، كما جرت العادة آنذاك. أمر طبيعي ألاّ يترك الضبّاط مع الجنود العاديين. عُيِّن مقرنا نحن ذوي الرتب في روسيا الداخلية. أما رجالنا فقد تمَّ إرسالهم بعيداً إلى سيبيريا.

تمكنت من تسجيل نفسي على لائحة الذاهبين إلى سيبيريا. ولا أزال حتى اليوم أجهل، على أية حال لا أريد أن أعرف، كيف تصرّف مانيس ريزيجر ونجح في جرجرتي إلى سيبيريا. منذ الساعة الأولى لاعتقالنا ومانيس ريزيجر تسلّم قيادة الفصيلة كلها. إن الله وحده يعلم ماذا يمكن للإنسان أن يتعلم، حين يكون حوذياً، من معاشرة الأحصنة، وخصوصاً حين يكون حوذياً من «زلوتوغرود».

لن استعرض هنا الوسائل والأحابيل التي وصلنا بواسطتها إلى سيبيريا. فهذه الوسائل والأحابيل تُفهم من تلقاء ذاتها. خلاصة القول، وصلنا إلى «وياتكا» خلال ستة أشهر.

ـ ٢١ ـ

تقع «وياتكا» في أقاصي سيبيريا على حدود نهر «لينا». استغرقت رحلتنا إذاً حوالي ستة أشهر. كنا نسهو عن عدّ الأيام خلال هذه الهجرة الطويلة. لأنّ الأيام كانت تتعاقب طويلة لا حصر لها ولا نهاية. فمن ذاك الذي يستطيع أن يحصي حبّات عقد من المرجان بستة صفوف؟ دام ترحالنا نصف سنة. اعتقلنا في أيلول ولم نصل إلاّ في آذار. ربما أزهار «السيتين» تكون الآن قد تفتحت في فيينا.

وعمّا قريب ستبدأ أزهار البيلسان بإشاعة عطرها. فيما النهر هنا يجرف قطعاً ثلجية هائلة. كان في إمكاننا، حتى في الأماكن الأكثر اتساعاً، اجتيازه من غير أن نبلل أقدامنا. مات خلال ارتحالنا أربعة من رجالنا بمرض التيفوس، وحاول أربعة عشر منا الهرب، وفرَّ معهم ستة من جنود الحراسة الروس. حين وصلنا إلى «تشيرين» أمرنا الضابط القوزاقي النائب الذي يتسلم قيادة موكب الأسرى، بالانتظار. كان عليه أن يعيد القبض على الجنود الفارّين. كان الضابط يدعى أندريه ماكسيموفيتش كراسّين. كان يلعب الورق معي فيما دورياته تنهب البلاد بحثاً عن الهاربين. كنا نتكلم بالفرنسية. كان يشرب من عنق مطرقة وهي على شكل يقطينة كان يقدمها له المستوطنون الروس القلائل. كان يبدو فخوراً وممتناً للاهتمام الذي أبديه نحوه. كنت أحب ضحكته وأسنانه البرّاقة القوية تحت شاربيه السوداوين مثل السبج، وعينيه اللتين ترتدّان إلى نقطتين صغيرتين مشعتين حين يصرّهما. أستطيع القول إنه كان سيّد ضحكته. كان يكفي بأن تقول له: «إضحك قليلاً لو سمحت» حتى تتدفق في الحال ضحكته الصاخبة، السخيّة، الطالعة من القلب. وفي ذات يوم، عثرت الدوريات على الهاربين، أو بالأحرى على من تبقى منهم أي ثمانية رجال من أصل عشرين. وبالطبع كان الآخرون إما تائهين وإما مختبئين في مكان ما وإما ماتوا عرضاً. كان أندريه ماكسيموفيتش كراسّين يلعب عندئذ جولة معي في ورق التاروت في كوخ المحطة. فأمر جنود الحراسة والأسرى بأن يأتوا للجلوس معنا، وطلب إحضار الشاي والعرق للجميع. ثم كلّفني، أنا العاجز المطلق أمامه، أن أكتب العقاب المتوجب على الهاربين من فصيلتي وأيضاً على الفارين الروسيين اللذين تمَّ إمساكهما. فأجبته قائلاً إني لا أعرف قوانين جيشه. بدأ بلهجة التوسل ثم انتقل إلى التهديد. فقلت أخيراً:

ـ «بما أنني أجهل العقوبات التي عليَّ أن أفرضها استناداً إلى قوانينك، أعلن إذاً العفو العام».

ألقى مسدسه على الطاولة وزعق قائلاً:

ـ «حضرة الضابط، أنت متآمر. آمر بالقبض عليك وباعتقالك».

فأجبته وأنا أمسك بورقي: «ماذا لو ننهي هذه الجولة أولاً؟»

أجابني: «بالتأكيد».

وتابعنا اللعب، يحيط بنا الجنود، جنود الحراسة والجنود النمساويون خسر جولته. كنت قادراً بسهولة على أن أتركه يربح، لكني خشيت أن ينتبه إلى الأمر. كان يشبه طفلاً تثير فيه الشكوك لذة أكبر من الضحك. وكان دائماً متحفزاً للظنون والريبة. تركته يخسر إذن. كان يقطب حاجبيه وينظر بطريقة غاضبة إلى الضابط المعاون آمر الفرقة، وكأنه يريد أن يأمره بإعدام الهاربين الثمانية رمياً بالرصاص. عندئذ قلت له: «إضحك قليلاً لو سمحت»، فانطلق ضاحكاً ضحكته الطيبة السخية، عارضاً كل أسنانه البيضاء. خلت للحظة أنني أنقذت حياة الجنود الثمانية.

لكن ضحكته هذه لم تدم إلاّ دقيقتين. بعدها رجع إلى جديته كالعادة وأمر الضابط المعاون:

ـ اسجنهم! ثمانيتهم! إنصرف! سأرى ما يمكن فعله».

ثم، عندما غادر الرجال الكوخ، أخذ يصفِّف الأوراق. وقال:

ـ «لنأخذ بالثأر»!

لعبنا جولة جديدة، وخسر للمرة الثانية. عندئذ وضع مسدسه في

جيبه، ثم نهض وقال:

ـ سأعود في الحال». وتوارى. أُضيء قنديلان من النوع الذي يسمى «بالدائري». أتت صاحبة الكوخ متبخترة وفي يدها قدح جديد من الشاي. فوق صفحة الشاي الطازج عامت قطعة الحامض العتيقة. كانت المرأة عريضة مثل سفينة وابتسامتها طفولية واثقة محبّة. حين تهيأت لانتزاع حلقة الحامض اللعينة، غمستْ في السائل إصبعيها الضخمتين المجاملتين وانتشلتها بنفسها. فشكرتها بنظرة.

شربت الشاي الساخن ببطء. لم يرجع الضابط أندريه ماكسيموفيتش بعد. كان الوقت يتأخر أكثر فأكثر، وكان عليَّ أن أوافي رجالي في المعسكر. خرجت من باب الشرفة وهتفت بإسمه عدة مرات. وأخيراً أجابني. كان الليل بارداً جليدياً إلى حدٍّ أنني شعرت بأن ندائي سيتجمد ما أن أتلفظ به فلا يصل أبداً إلى مسمع مَنْ أنادي. رفعت عيني نحو السماء. كانت النجوم الفضية تبدو وكأن قبّة السماء لم تنجبها، بل كأنها مغروزة هناك مثل مسامير، مسامير مشعة. هبَّت ريح شرقية شديدة، وهي أقسى رياح سبيريا إطلاقاً، فقطعت أنفاسي وانتزعت من قلبي قدرته على الخفقان، ومن عيني قدرتهما على الرؤية. بدت لي إجابة الضابط على ندائي، التي أوصلتها الريح الفظّة إلى مسمعي كأنها أول رسالة إنسانية معزّية استلمتها أخيراً بعد انتظار طويل، طويل.وبالكاد انتظرت بضع دقائق في الخارج، في الليل المعادي حتى أنعم عليَّ البلاغ الإنساني بالعزاء، لكن أي عزاء تعيس!

رجعت إلى الكوخ. قنديل واحد لا يزال مشتعلاً. ولم يكن ينير الغرفة بل يجعل ظلامها محسوساً أكثر ودامساً أكثر. جلست قرب القنديل. وفجأة، جعلتني بضع طلقات نارية انتفض. هرعت إلى

الخارج. لم تكن صخبة الانفجار قد خمدت بعد. كانت كأنها تتابع دورانها تحت السماء العظيمة الباردة. أرهفت السمع. لا شيء يتحرك، فقط ريح الشمال الجليدية الأبدية، ولأني لم أعدْ قادراً على تحمل المزيد، عدت إلى الكوخ.

بعد قليل، رجع الضابط شاحباً رغم الريح، قبعته في يده ومسدسه طالع من القراب شبه المفتوح.

جلس حالاً. كان يتنفس بصعوبة. فكَّ قبة سترته وشخص إليَّ كأنه لا يعرفني أو يحاول جاهداً التعرف إليّ. كنَّس الأوراق عن الطاولة بكمِّه، وجرع جرعة كبيرة من عنق الزجاجة. ثم ألقى رأسه وقال لي بسرعة:

ـ «لم أصب إلاّ واحداً».

ـ لقد صوّبت بشكل سيء إذن».

لكني كنت أعطي لكلماتي معنى آخر مختلفاً تماماً.

ـ «أجل! صوّبت بشكل سيء. جعلتهم يقفون في الصف. لم أكن راغباً سوى في إخافتهم. فصوّبت في الهواء، ولكن عند الطلقة الأخيرة، ضغط أحدهم على ذراعي. حدث ذلك بسرعة. ولا أعرف كيف انطلقت الرصاصة، مات الرجل. ولم يعد جنودي يفهمونني».

دُفنت الضحية في الليلة ذاتها. أمر الضابط بإطلاق رشق من الرصاص على شرفها. ومنذ ذلك الوقت كفَّ عن الضحك. بدا وكأن شيئاً ما يشغل باله.

وأمرنا أيضاً بأن نتلو عشرة سطور من الكتاب المقدس. وقبل يومين من تسليمنا إلى عهدة رئيس جديد للحراسة، طلب مني أن

أجلس إلى جانبه في مركبة الجليد. ثم قال لي:

ـ «هذه المركبة لك، ولصديقيك، اليهودي «حوذي ويعرف كيف يتدبر أمره. هاك خارطتي. لقد أشرت بصليب إلى المكان الذي عليكم أن تقصدوه. فهناك أحد ما في انتظاركم. وهو صديق لي وموثوق به. لا أحد سيفتش عنكم. لأني سأقول بأني اعتقلتكم ثلاثتكم بتهمة الفرار، وقمت بتنفيذ الإعدام ودفنكم».

ثم شدَّ على يدي مصافحاً ونزل من مركبة الجليد.

انطلقنا تحت جنح الليل. استغرقت رحلتنا بضع ساعات. وجدنا الرجل في انتظارنا. وأحسسنا حالاً أننا في أمان في بيته. هكذا ابتدأت حياة جديدة بالنسبة لنا.

ـ ٢٢ ـ

كان مضيفنا من هؤلاء البولونيين الذين أقاموا في سيبيريا منذ مدة طويلة. كان بائع فراء، ويعيش وحيداً مع كلب من أصل غير معروف وبندقيتين وعدد لا يستهان به من الغلايين التي من صنعه. كان بيته مؤلفاً من غرفتين شاسعتين مكتظتين بجلود حقيرة. كان يدعى جان بارانوفيتش. كان كلامه قليلاً جداً، كأنَّ لحيته السوداء

الثقيلة تلزمه بالصمت. كان يكلِّفنا القيام ببعض الأعمال البسيطة كمثل تصليح السور وتقطيع الحطب وتشحيم مزالج مركبة الجليد وتنقية الفراء. كان يعلِّمنا القيام بأشياء نافعة. لكن، اكتشفنا بعد مضي أسبوع من إقامتنا، أنه لم يكن يشغلنا إلاّ بدافع اللباقة، لكي يجنبنا التخاصم معه أو فيما بيننا. وكان على حق في ذلك. كان يقوم بنحت الغلايين والعصي في الدغل القاسي والصلب الذي ينبت في المنطقة التي كان يطلق عليها إسم «ناستوركا»، ولا أعرف لماذا. كان كلَّ أسبوع يسوِّد غليوناً جديداً. لم أسمعه مرة واحدةً يمزح. أحياناً، كان ينزع الغليون من فمه ليبتسم لأحدنا. وكل شهرين تقريباً، كان يأتي رجل من الكفر الأكثر قرباً، ويأتي لنا بجريدة روسية قديمة. لكنَّ بارانوفيتش لم يكن يعيرها اهتماماً. كانت الجريدة تحيطني علماً بأشياء كثيرة لكن من دون أن تطلعنا على سير الحرب. ذات يوم قرأت أن القوزاقيين دخلوا إلى «سيليزيا». صدَّق قريبي هذا الخبر ولكن مانيس ريزيجر رفض أن يصدق. أخذا يتشاجران. وللمرة الأولى حنق أحدهما على الآخر. وباختصار، كان الجنون الذي تسببه الصحراء قد بدأ يزحف إليهما، هما أيضاً. كان جوزف برانكو أكثر شباباً وقوة من الحوذي، فشدَّه من لحيته. كنت عندئذ منهمكاً في تنظيف الصحون في المطبخ دخلت عند سماعي ضجة الخصام إلى الغرفة، والصحون لا تزال في يدي. كان صديقاي منصرفين إلى القتال فلم يرياني ولم يسمعاني وبالرغم من أني تفاجأت برؤية هيجان هذين الرجلين اللذين كنت أحبّهما، فإن ضوءاً غمر كياني فجأة. أدركني هذا الضوء المنبجس من الخارج، وعلمت عندئذ أني لم أعد أنتمي إليهما. ووقفت أمامهما ليس بصفتي صديقاً وإنما بصفتي حاكماً عاجزاً. كنت أعي جيداً أنهما كانا تحت تأثير جنون الصحراء، إلاّ أنني كنت أحسب نفسي

رجلاً منيعاً وفي منأى عن هذا الجنون. رجعت إلى المطبخ أنظف صحوني وقد استولى عليَّ شعور سيء باللامبالاة. أثناء ذلك، ثارت ثائرتهما. وأنا، لكي أتحاشى تعكير هذيانهما القتالي، رحْتُ، كمن يتحاشى أن يعكِّر غفوة أحدٍ ما نائم في الغرفة المجاورة، أرتِّب صحوني الواحد فوق الآخر محاذراً بتؤدة أن تصطك. وعندما انتهيت من عملي، جلست على الدرج وانتظرت بهدوء.

بعد انقضاء وقت طويل، خرجا هما أيضاً، الواحد تلو الآخر. لم يهتما لوجودي كما منذ قليل. كأنَّ كل واحد منهما، كلٌّ منهما بالأصالة عن نفسه لأنهما كانا متخاصمين، يريد أن يظهر احتقاره لعدم تدخلي في النزاع. ثم أكبّا على عمل تافه. راح واحد منهما يشحذ سكيناً لكن من دون أن يبدي أيَّ مظهر متوعد، والآخر يضع ثلجاً في طنجرة. ثم أشعل النار، لقّمها بضع حطبات صغيرة، وضع القدر على الموقد شاخصاً بعينيه إلى اللهب. انتشرت حرارة لذيذة. كان اللهب ينعكس على النافذة المقابلة، يزرقّ ثم يحمّر ليجعل أزهار الجليد بنفسجية. بدأت قطرات الماء المتجلدة عند تصالب النافذة بالذوبان.

كان الغسق ينتشر في الغرفة. والماء يغلي في القدر. قليلاً ويرجع بارانوفيتش من إحدى نزهاته التي كان يقوم بها في بعض الأحيان، دون ان يُعرف الدافع. ها قد رجع واضعاً سترته تحت ذراعه وقفازاته داخل حزامه، (كان معتاداً على نزعها قبل اجتياز العتبة احتراماً). مدّ يده مصافحاً كلاً منا وحيّانا قائلاً: «فليهبكم الله الصحة!» ثم انتزع قبعته ذات الفراء السميك راسماً إشارة الصليب وذهب إلى الغرفة.

بعد ذلك، تناولنا العشاء كالعادة، أربعتنا سوية. كانت الساعة

المصوّتة تقرع تكتكتها الشبيهة بعصفور تائه في بلاد غريبة ومثير للدهشة لأنه لم يتجلد أثناء الطريق. كان بارانوفيتش، المعتاد على أحاديثنا المسائية، يسترق النظر إلى وجوهنا خلسة. وفجأة نهض ببطء أقل من المعتاد، وكأنه مستاء من الخيبة التي تسببنا له بها هذا اليوم. ثم تمنى لنا ليلة هانئة وتوارى في الغرفة الثانية. أخليت الطاولة وأطفأت القنديل. كان الليل يلمع عبر زجاج النافذة. ذهبنا إلى النوم. قلت «ليلة سعيدة» كما في كل مساء، لكن أحداً لم يردّ.

في صباح اليوم التالي، وعندما كنت أقطع الحطب لأشعل السماور، دخل بارانوفيتش إلى المطبخ. وأخذ يتحدث إليّ بذلاقة لسان غير متوقعة:

ـ «ماذا، هل انتهى بهما الأمر إلى التخاصم؟ رأيت أثر اللطمات وفهمت معنى صمتك. لم أعد استطيع الاحتفاظ بهما عندي. يجب أن يخيّم السلام على هذا البيت. هذه ليست أول مرة ينزل فيها أناس في ضيافتي. وطالما أنهم يعيشون بسلام فيما بينهم، فبإمكانهم أن يبقوا عندي قدر ما يشاؤون. لم يسبق لي أن سألت أيّاً منهم من أين هو آتٍ. لا فرق عندي إن كان مجرماً فهو ضيف لدي. وأنا أعمل بالمثل القائل: «ضيف في بيتي الله في بيتي».

الضابط الذي أرسلك إلى هنا يعرفني منذ مدة طويلة. هو أيضاً، توجب علي أن أطرده ذات يوم لأنه ضرب أحدهم، وهو غير حاقد علي. أنت أرغب في استبقائك لأنك لم تشترك معهما في القتال. ولكن صديقيك قد يفشيان أمرك. لذا سترحل معهما».

لزم الصمت. رميت أعوادي المشتعلة في أنبوب السماور، ووضعت فوقعها ورقة جريدة مدعوكة لأمنعهامن أن تنطفيء. وحين

بدأ الماء يخرّ، استأنف بارانوفيتش الكلام:

ـ «أنتم لا تستطيعون الفرار. فالتجوال هنا في هذا الفصل يعني تعريض أنفسكم لموت محتم. لم يبق أمامكم إذاً سوى الذهاب إلى «ويانكا».

ثم ردّد مرة ثانية: «إلى ويانكا». وقال بعد تردد:

ـ «إلى المعسكر. هناك سينزلون بكم عقاباً، لا أعرف هل سيكون خطيراً أم خفيفاً. وربما لن تتعرضوا لأيّ عقاب. فهناك الفوضى متفشية والقيصر بعيد ومراسيمه مشوّشة. ستذهبون إلى كومين رقيب المدفعية، وهو أكثر نفوذاً من قائد المعسكر. سأعطيكم بعض السجائر و«الماشوركا» لتسلمه إيّاها. كومين، تذكر إسمه جيداً».

كان الماء يخر، وضعت الشاي في التشاينيك الموضوع فوق أنبوب السماور. وفكرت: «هذه هي المرة الأخيرة». لم يكن المعسكر يخيفني. فهذه هي حال الحرب. ويفترض بجميع الأسرى أن يذهبوا إلى المعسكر. لكني كنت عارفاً الآن أني قد بدأت أعتبر بارانوفيتش أباً لي وبيته وطني، وخبزه خبز وطني. البارحة، فقدت أعزّ أصدقائي. وايوم ها أنا أفقد وطناً. كانت هذه أول مرة في حياتي، لكني كنت أجهل أنها لن تكون الأخيرة. والناس أمثالي يتأثرون.

عندما دخلت إلى الغرفة حاملاً الشاي، كان مانيس ريزيجر وجوزف برانكو يحتلان جهتي الطاولة. كان بارانوفيتش يسند ظهره إلى الباب المؤدي إلى الغرفة الأخرى. بقي واقفاً عندما قدمت له الشاي. قطعت الخبز ووزعته بنفسي اقترب من الطاولة مفرغاً كوبه وهو واقف. وأكل خبزه واقفاً. ثم قال:

«أصدقائي، لقد شرحت لتوي إلى ضابطكم الأسباب التي تدفعني

إلى عدم تمكني من إبقائكم عندي، خذوا مركبة الجليد وضعوا بعض الفراء فوق ستراتكم. فهذا سيبقيكم دافئين. سأرافقكم حتى المكان حيث ذهبت لإحضاركم».

خرج مانيس ريزيجر. سمعته يجر المركبة فوق الثلج المتكسر في الفناء. لم يفهم جوزف برانكو ما الذي يجري. فقلت له:

«قمْ واحزم أمتعتك!»

لأول مرة، كان اضطراري لإعطاء الأوامر يؤلمني.

عندما صرنا جاهزين، احتشدنا في المركبة الصغيرة. ثم قال لي بارانوفيتش:

ـ إنزل، نسيت أن أقول لك شيئاً».

عدنا إلى المنزل. ألقيت نظرة أخيرة إلى المطبخ والغرفة والنوافذ والسكاكين والصحون والكلب المربوط والبندقيتين وكدستيْ الفراء. نظرة خاطفة، لكن عبثاً حاولت إخفاءها لأن بارانوفيتش انتبه إليها.

قال لي: «خذ» وهو يسلمني مسدساً. «صديقاك س....»

لم يكمل جملته. أدخلت السلاح في جيبي.

ـ «كومين لن يفتشك. ما عليك سوى إعطائه الشاي والماشوركا»!

كنت أهم بأن أشكره. لكن كم ستكون كلمات الشكر الخارجة من فمي تافهة. فكرت: «كم من المرات قلت في حياتي شكراً، دون صدق من طرف شفتي، مدنِّساً الكلمة حقاً». ربما سيكون هذا الشكر المائع دون معنى في مسامع بارانوفيتش. ومصافحة يده ستكون

أيضاً دون أهمية تذكر. كان يرتدي قفازيه. عندما وصلنا إلى المكان حيث انتظرناه ذات يوم. عندئذ فقط نزع القفاز من يده اليمنى وصافحنا وهو يقول كلامه المعهود: «فليهبكم الله الصحة». وهتف: «حا! دي!» وكأنه كان يخشى أن نبقى هنا. ثم استدار. كان الثلج يتساقط. توارى بارانوفيتش مثل شبح يطويه البياض الكثيف.

وصلنا إلى المعسكر. لم يوجه إلينا كومين أسئلة. أخذ الشاي و«الماشوركا»، دون أن يسألنا شيئاً. وفرّقنا. توجهت إلى المخيم. لم أكن أرى مانيس ريزيجر وجوزف برانكو إلاّ مرتين في الأسبوع، لدى القيام بالتدريبات. كانا لا يوجهان إلى بعضهما أية نظرة. وعندما يحدث لي أن أقترب من أحدهما لأعطيه شيئاً من تبغي القليل، كان كل منهما يقول لي باللغة الألمانية العبارات الشائعة التي تستعمل أثناء الخدمة: «شكراً يا سيدي الضابط.

ـ هل كل شيء على ما يرام؟ ـ أجل يا سيدي الضابط»، وذات صباح، كان كلاهما متغيباً عن التدريب في الفناء. عند المساء، وجدت رسالة صغيرة معلقة بدبوس إلى وسادة سريري في المعسكر. كانت مكتوبة بخط جوزف برانكو. قرأت: «لقد رحلنا. سنذهب إلى فيينا».

ـ ٢٣ ـ

وبالفعل، التقيت بهما في فيينّا، لكن بعد أربع سنوات.

رجعت إلى دياري عشية عيد الميلاد سنة ١٩١٨. كانت ساعة محطة «الغرب» تشير إلى الحادية عشرة. تبعت طريق «ماريا هيلفر شتراس»، كان المطر ممزوجاً بالثلج، صنواً تعيساً للبرد، يتساقط من سماء متجهّمة. كانت قبعتي العسكرية مجردة من نجومها. والمصابيح القليلة المشتعلة كانت أيضاً مجردة من زخرفها. كان الخشف يتكسر فوق زجاجها القائم وكأن السماء ترشق بحصى صغيرة كريات كبيرة من الزجاج الحزين. كانت معاطف الموظفين تتطاير في الريح أمام أبواب المباني الحكومية، وأذيال ستراتهم منتفخة رغم الرطوبة التي تبللها. كانت الحراب لا تبدو حقيقية، والبنادق تستند منحرفة فوق اكتاف الجنود، راغبةً في الراحة والنوم بعد أن أتعبتها، مثلنا، أربع سنوات من إطلاق الرصاص. لم يكن الرجال يقفون لتحيتي، وهذا الأمر لم يفاجئني البتة. فقبعتي الجرداء وقبة سترتي الجرداء لم تكونا تلزمان أحداً بذلك. ولم أغتظ، فقط

شعرت بالكآبة. كانت هذه النهاية، فكرت بأحلام أبي، بحلم هذه الملكية الثلاثية الذي هيَّأني لأحققه ذات يوم. كان يرقد الآن في مدفن «هتيزنغ»، وكان الأمبراطور فرنسوا ـ جوزف يرقد في مقبرة الكبوشيين. وكنت الوريث العائد إلى بيت أمي تحت الخشف. قمت باستدارة لأمرّ عبر مدفن الكبوشيين. كان هناك حارس يروح ويجيء أمام المدخل. ماذا عساه يحرس هنا؟ النواويس؟ أم الذكرى؟ أم التاريخ؟ أنا، الوريث، توقفت لحظة أمام الكنيسة. لم يهتم الخفير لحضوري. حسرت عن رأسي. ثم، من بيت إلى بيت، اهتديت إلى بين أبي. تُرى هل لا تزال أمي على قيد الحياة؟ كنت قد أعلمتها برجوعي مرتين خلال رحلة العودة.

أسرعت الخطى. هل لا تزال أمي على قيد الحياة؟ وصلت إلى بيتنا. قرعت الجرس. انتظرت طويلاً. وأخيراً جاءت البوّابة العجوز وفتحت الباب؟

هتفت لها: «سيدة فاني»!

عرفتني في الحال من صوتي. ارتعشت لهبة الشمعة في يدها المرتجفة.

-«نحن في انتظارك. نحن في انتظارك يا سيدي الشاب. منذ عشر ليالٍ لم ننم، لا أنا ولا زوجي. ولا السيدة. إنها فوق».

كانت فاني ترتدي ثوباً لم أشاهدها به إلاّ أيام الآحاد صباحاً، ولكن أبدا في المساء بعد وقت الإقفال. ارتقيت الدرجات أربعاً أربعاً.

كانت أمي تقف إلى جانب كنبتها القديمة، في ثوبها الأسود العالي حتى الذقن، وشعرها الفضي مسرّح بطريقة تكشف الجبين. كانت حافة مشطها العريضة خلف جديلتيها الملفوفتين تنتصب رمادية

مثل الشعر. والكشكش الأبيض الأليف جداً لذاكرتي يزين قبتها وأردان أكمامها الضيقة. رفعت عصاها ذات المسكة الفضية كأنما لتتضرع. رفعتها نحو السماء كأن يدها لم تعد كبيرة بما فيه الكفاية لشكر بهذا الخشوع. لم تتحرك من مكانها. كانت تنتظرني. ثم تقدمت نحوي جامدة أحنت رأسها. لم تقبلني على جبيني. بل أمسكت ذقني من إصبعيها، فرفعت رأسي ولاحظت للمرة الأولى أنها أطول قامة مني. نظرت إليّ طويلاً. وعندئذ حدث شيء رهيب لا يصدق. شيء لم أفهمه، شبه خارق. أمسكت أمي يدي، انحنت قليلاً وقبّلتها مرتين. وأنا على هذا الحرج، خلعت معطفي بسرعة. قالت لي أمي:

ـ«والسترة أيضاً، فهي مبتلة».

نزعت قميصي أيضاً. لاحظت أمي فتقاً في كم قميصي الأيمن.

ـ «إعطني قميصك لأرتقها».

فمانعتُ: «لا ليست نظيفة».

لم يسبق لي أن قلت من قبل في بيتنا كلمة «وسخ» أو «مقرف» أو ما شابه. غريب كيف تستعيد تصرفاتي الاحتفالية عافيتها بسرعة! فأحسست عندئذ أنني فعلاً رجعت إلى بيتنا.

لم أقل شيئاً. كنت أكتفي بالنظر إلى أمي، وأنا آكل وأشرب ما حضّرته من أجلي. كانت قد اشترت كرماً لي أشياء كثيرة بمئة طريقة ملتفة. أشياء صارت مفقودة في فيينا آنذاك: لوز مالح، خبز الحنطة الكاملة، لوحا شوكولا، قنينة من الكونياك الممتاز، وقهوة أصلية. جلست أمام البيانو. كان مفتوحاً. لا شك في أنها تركته هكذا منذ عدة أيام، مذ أعلمتها بقدومي. ربّما كانت راغبة في أن تعزف لي

موسيقى لشوبان. كانت تعرف أن حبي له هو أحد الأشياء القليلة التي ورثتها عن والدي. كشفت لي الشموع الصفراء الضخمة التي احترق نصفها، والمشكوكة في الشماعد البرونزية، كشفت لي فجأة أن أمي لم تلمس البيانو منذ سنوات. كانت في السابق تعزف كل مساء، فقط في المساء، وفقط على ضوء الشموع. لكن ها إني أرى الشموع الطيبة الضخمة لأيام زمان، والتي اختفت خلال الحرب. طلبت أمي مني أن أحضر لها علبة أعواد الثقاب. كانت هناك عادة علبة فوق المدخنة. كانت العلبة البنية الفظة تبدو مرتبكة في الغرفة إلى جانب الساعة التي يعلوها رسم لفتاة جميلة الوجه. بدت العلبة وكأنها دخيلة. كانت أعواد الثقاب مكبرتة. لزم الانتظار حتى تتحول شرارتها الزرقاء الصغيرة إلى شعلة سليمة عادية. رائحتها أيضاً دخيلة. كانت تفوح من دارنا عادةً رائحة خاصة، مزيج من بنفسج ذابل وقهوة نفاذة الرائحة، طازجة. فماذا جاءت تفعل رائحة الكبريت هنا؟

ألقت أمي يديها الحبيبتين فوق الملامس. اتكأت إلى البيانو قربها. انزلقت أصابعها البيضاء على المفاتيح، ولكن أيّ صوت لم يخرج من الآلة. كان صوت البيانو صامتاً، ميتاً بكل بساطة. احترتُ للأمر. نقرت بنفسي على المفاتيح، فلم تجب. كان الأمر يبعث على الشؤم. رفعت الغطاء فوجدت البيانو فارغاً دون أوتار.

قلت: «لكن يا أمي، الأوتار غير موجودة».

أجابتني للحال بصوت خفيض: «غاب عن بالي تماماً. بعد أيام قليلة من رحيلك، خطرت لي فكرة غريبة. لم أعد أعرف. كانت حواسي مضطربة وعقلي أيضاً، الآن فقط تذكرت».

نظرت إليَّ وعيناها تغشاهما الدموع، تلك الدموع التي لا يمكنها أن تسيل بل تشبه مياهاً راكدة. ارتميت معانقاً رقبة أمي العجوز. داعبت رأسي.

ثم هتفت قائلة: «لكن شعرك مكسو بالشحار!»

وردّدت عدة مرات:

«شعرك مكسو بالشحار! قم واغتسل»

وعندما حان وقت النوم، رجوتها كما كنت أفعل في صغري:

ـ «لا أريد أن أذهب الآن إلى النوم، لا! هل تسمحين لي يا أمي أن أبقى قليلاً هنا؟»

جلسنا قرب الطاولة المستديرة، أمام المدخنة. ثم قالت لي أمي:

«استطعت أن أتدبر سجائر بوسائلي الخاصة، علبتين «إيجيبتيان»، السجائر التي كنت تدخنها دائماً. وغلّفتها داخل أوراق نشاف رطبة كي تظل طازجة. ألا تريد أن تدخن منها. إنها هناك على حافة النافذة».

أجل، كانت هذه علبة سجائري القديمة. تفحصت العلبة من جميع الجهات. على الغطاء، بالإمكان قراءة هذه الكتابة بخط يدي: فريدل رينحز، هو هنشتوفنغاس. فتذكرت في الحال. كان هذا إسم بائعة التبغ الجميلة التي اشتريت منها تلك السجائر. ابتسمت أمي العجوز.

سألت: «من هذه؟

ـ فتاة لطيفة، لم أرَها ثانية.

ـ ها قد صرت كبيراً الآن على أن تغوي فتيات مبتدئات في بيع

التبغ. على أية حال، لم يعد هناك سجائر».

كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها محاولة ما لأمي في المزاح.

عاد الصمت ليسود من جديد. ثم سألت:

ـ «هل تعذبت كثيراً يا بني؟»

ـ ليس كثيراً يا أمي.

ـ هل تألمت لغياب عزيزتك أليزابيت، يا بني؟

لا ياأمي»

كانت تقول «عزيزتك أليزابيت» وليس «زوجتك».

ـ «أما زلت تحبها؟

ـ كل هذا بعيد جداً الآن يا أمي.

ـ ألن تسألني عن أخبارها؟

ـ سأفعل يا أمي.

ـ لم أرها إلاّ مرات قليلة، وفي أكثر الأحيان برفقة حميك. رأيتها آخر مرة منذ شهرين. كان حموك مكتئباً بعض الشيء ولكن مفعماً بالأمل. لقد درّت عليه الحرب مالاً. كانا يعلمان أنك سجين. واعتقد أنهما كانا يفضلان رؤية إسمك على لائحة الموتى أو المفقودين. أليزابيت...

فقاطعتها قائلاً:

ـ «بإمكاني أن أحزر يا أمي».

ولكنها أصرّت:

ـ لا ليس في مقدورك أن تحزر. أتستطيع أن تتخيل ماذا صار حالها؟

افترضت الأسوأ، أو ما يمكنه أن يكون كذلك في نظر أمي.

فسألتها: «راقصة؟»

هزّت أمي رأسها بخطورة، ثم قالت بلهجة حزينة شبه مفجعة:

ـ «لا، إنها متورطة في فنّ الزخرفة. هل تعرف ماذا يعني ذلك؟ يعني أنها تصمم أو ربما تنحت عقوداً، عقوداً تافهة وخواتم ومشابك من خشب الصنوبر. أي من هذه الأشياء المعاصرة المخيفة كما تعلم. وأعتقد أنها تتقن أيضاً صنع سجاد من القش. آخر مرة جاءت فيها لزيارتي، أملت عليَّ محاضرة عن الفنّ الزنجي وكأنها أستاذة. وذات مرة اصطحبت معها صديقة... (تردّدت أمي دقيقة ثم تابعت) مخلوقة شعرها قصير.

سألتها: و«هل هذا كله خطير إلى هذه الدرجة؟

ـ أكثر مما تتصور يا ولدي. إذا أخذنا نصنع أشياء توهمنا أنها ذات قيمة فيما هي مصنوعة من مواد لا قيمة لها، إلى أين سيؤدي بنا هذا؟ زنوج أفريقيا يرتدون أشياء مصنوعة من الأصداف، لكن هذا أمر مختلف تماماً. الغشّ، يمكن تحمله. لكن هؤلاء الناس يحرزون أموالاً من وراء غشهم هل تفهم ماذا أعنيه يا ولدي؟ لن يجعلوني أصدق أن القطن حرير، وأنهم يصنعون أكاليل الغار من أكواز الصنوبر؟»

كانت أمي تروي كل ذلك ببطء وبصوت هادىء كالعادة. لكن

وجهها اصطبغ بحمرة خفيفة.

ـ «هل كنت تفضل أن تكون راقصة؟»

فكَّرَتْ هنيهة ثم أجابت، وقد استولتْ عليَّ الدهشة:

ـ «نعم بالتأكيد، يا ولدي. قلَّما أحب أن تكون كنّتي راقصة. ولكنها لو كانت راقصة لعرفنا على الأقل على أيّ قرار تثبت. هناك ممارسات أكثر تحرراً ولكنها تعلن عن نفسها بصراحة، وليست خداعاً أو غشاً. للشباب أمثالك علاقات براقصات. حسناً، أقبل بذلك. لكن أيطلب منّا أن نتبنى الفنون التطبيقية؟ هل لمست الفرق؟ غداً حين ستتعافى من الحرب، ستفهم هذا لوحدك. على كلٍّ، عليك أن تذهب لرؤية اليزابيت صباحاً. على فكرة، أين ستقيمان؟ وكيف ستنظمان حياتكما؟ إنها تقيم الآن عند والدها. في أية ساعة تحب أن أوقظك؟»

ـ «لا أعرف يا أمي.

ـ أتناول الإفطار في الثامنة.

ـ في السابعة إذن، من فضلك.

ـ إذهب الآن للنوم يا عزيزي! ليلة سعيدة!»

قبَّلْتُ يدها. قبلتني على جبيني. أجل، كانت هذه أمي فعلاً. فكل شيء يجري بالنسبة لها وكأن شيئاً لم يحدث، وكأني لم أعد لتوي من الحرب. أو كأنَّ العالم لم يكن خراباً ولا الملكية مدمّرة. كأن وطننا القديم لا يزال موجوداً بشرائعه العديدة وغير المفهومة، لكن الثابتة، وبعاداته وأعراقه واتجاهاته وحسناته وعيوبه. كنت فيما مضى، أستيقظ في بيت أمي في الساعة السابعة حتى بعد أربع ليالٍ

ساهدة. وصلت حوالى منتصف الليل وكانت ساعة الحائط فوق المدخنة تدق ثلاث دقات. وثلاث ساعات من البوح الحنون كانت كافية لأمي. هل كانت كافية حقاً؟ على أي حال، لم تمنح نفسها ولا ثلث ساعة إضافية. كانت على حق، إذ غفوت فوراً، تعزيني فكرة أنني موجود في بيتنا. وسط وطن مدمر، كنت أنام في حصن منيع. وكانت أمي تزيح عني بعصاها القديمة السوداء، كل ما يمكن أن يعكّر صفو نومي.

ــ ٢٤ ــ

لم تكن الحياة التي تنتظرني تثير فيَّ أي نوع من الخشية. ولكي استعمل تعبيراً معاصراً «لم أكن متيقناً منها. كنت أهتم بالأحرى بالواجبات اليومية التافهة، وأشبه شخصاً واقفاً في أسفل درج كبير يُفترض به حتماً أن يرتقيه، لكنه يعتبر الدرجة الأولى هي الأكثر خطورة.

لم يعد لدينا خادم خاص، بل خادمة فقط. كان البوّاب العجوز يقوم بمهام الخادم. أرسلته حوالى التاسعة صباحاً ليحمل إلى زوجتي باقة زهر ورسالة. أعلمتها بقدومي في الساعة الحادية

عشرة، كما اعتقدت أنه مناسب. تأنَّقتُ في لباسي، كما كان يقال في تلك الأيام. كانت ثيابي المدنية لا تزال في حالة جيدة. ذهبت مشياً على الأقدام. وصلت قبل خمس عشرة دقيقة من الموعد المحدّد، وانتظرت في المقهى المقابل. في الساعة الحادية عشرة تماماً، قرعت الباب. فقيل لي: «السيد والسيدة خرجا!». كانت الأزهار والرسالة قد سلِّمت فعلاً. كانت أليزابيت تطلب مني أن أذهب للقائها في مكتبها في «فولتسايله» فذهبت إلى هناك.

كانت هناك فعلاً. على الباب لافتة كتب عليها: «محترف أليزابيت تروتا». كان منظر إسمها لوحده يجعلني أتراجع.

قالت لي زوجتي: «تأهب!».

ثم أضافت:

«تمهَّل حتى انظر إليك!»

تهيأت لتقبيل يدها لكنها شدّت على ذراعي. كانت هذه الحركة كافية لتجعلني أرتبك. فهذه هي المرة الأولى التي تخفض فيها امرأة ذراعي، وهذه المرأة فوق ذلك زوجتي! استولى عليَّ هذا النوع من الاستياء الذي كنت أشعر به دائماً أمام منظر المجانين أو الآلات حين تقوم بحركات بشرية. أو كما يحدث لي مثلاً أمام منظر النساء من دون أن أسفل بطونهن. ومع ذلك، كانت هذه أليزابيت فعلاً. كانت ترتدي قميصاً خضراء عالية جداً مع قبة مستعارة وربطة عنق طويلة رجالية. كانت بشرة وجهها لا تزال مخمليّة. واستطعت أن أميز جيداً استدارة عنقها حين أحنت رأسها، ونقر أصابعها الرشيقة العصبية فوق الطاولة. كانت تجلس على كرسي خشبي أصفر. على أية حال، كان كل شيء في المكتب أصفر: الطاولة، وإطار

اللوحة، وخشب النافذة الكبيرة، والأرضية العارية.

قالت لي: «اجلس على الطاولة من فضلك. دخِّن. لم أرتِّب وضعي كما يجب».

روت لي أنها فعلت كل شيء بنفسها، «بهاتين اليدين»، قالت وهي تظهر يديها الجميلتين. أما بقية الأثاث فستصل خلال ثمانية أيام، ومعها ستائر برتقالية اللون. فالأصفر والبرتقالي ينسجمان جيداً. ثم عندما أنهت تقريرها (كانت تتكلم بنفس الصوت القديم، الأبح قليلاً، والذي كنت أحبه كثيراً).

ـ «وأنت ماذا فعلت خلال هذه الفترة كلها؟

ـ تركت للأحداث أن تجرفني بتيارها.

ـ أشكرك على الأزهار. من كان يقول أنك ستبعث أزهاراً؟ لماذا لم تتصل؟

ـ لا يوجد تلفون عندنا».

ثم أمرتني قائلة:

ـ هيَّا، حدِّثنا!

أشعلت سيجارة. أشعلتها بالطريقة نفسها التي تشعل بها النساء السيجارة عادةً. يثبِّتن السيجارة عند ملتقى الشفتين ويلوين فمهن بطريقة تعطي لوجوههن التشوّه الخاص بالمرض الذي يدعوه الأطباء التشوّه النصفي. وكانت تبدي في الوقت نفسه طلاقة في الكلام والتصرف اكتسبتها، دون شك، مقابل جهد كبير. قلت لها.

«سأتحدث عن ذلك فيما بعد يا أليزابيت».

ـ «كما تشاء، ألق نظرة إلى رسومي».

وأطلعتني على رسومها.

قلت: «مميزة جداً».

كانت هناك رسوم من كل نوع: سجّاد، شالات، ربطات عنق، خواتم، أساور، شماعد، مصابيح. وكل الرسوم نافرة. ثم سألتني:

ـ «هل تفهم؟ بالطبع لا، كيف بإمكانك أن تفهم؟

نظرت إليَّ. فقرأت الألم في عينيها. وشعرت أنها تفكر في ليلة زواجنا. فداهمني فجأة شعور من الإحساس بالذنب. لكن كيف باستطاعتي أن أعبّر عنه؟

فُتح الباب فجأة. فدخل شيء ما قاتم بسرعة البرق. امرأة شابة، شعرها قصير أسود وعيناها كبيرتان سوداوان ووجهها أسمر داكن. كان هناك زغب كثيف يكسو الشفتين الحمراوين. وكانت أسنانها صلبة بيضاء. أطلقت المخلوقة في الغرفة كلمات رنّانة لم أفهمها. نهضتُ فجلسَتْ على الطاولة.

قالت أليزابيت: «زوجي!»

لم أفهم إلاّ بعد دقائق أنني في حضرة يولاند. سألتني زوجتي!:

ـ «ألم تسمع بيولاند زاتماري؟»

ففهمت على هذا أني في حضرة أحدى الشهيرات. كانت متضلّعة أكثر من أليزابيت في الفنون التزيينية وفي تنفيذ كل ما تقتضيه على وجه السرعة. اعتذرت. فخلال وجودي في «ويانكا» أثناء ارتحالي برفقة الأسرى. لم يحدث لي أن سمعت بإسم يولاند زاتماري.

سألتْ هذه الأخيرة:

ـ أين العجوز؟

أجابت زوجتي: لن يلبث أن يحضر»

كان العجوز حماي. وبالفعل، وصل بعد قليل من الوقت. حين رآني، أطلق «آهاً» متوقعة وطوقني بذراعيه. كان ممتلئاً صحة ونشاطاً. ثم قال متعجباً: «مرحى، ها قد عدت»، وبلهجة مفعمة بالظفر وكأنه هو الذي أعادني بنفسه. ثم أضاف على الفور.

ـ كل شيء جيّد طالما انتهى بشكل جيد.

انطلقت المرأتان بالضحك. أما أنا فأحسست أنني أحمريت خجلاً. ثم أمرنا قائلاً:

ـ هيًا نتناول الغداء!»

ثم توجه إليَّ:

ـ «كل هذا صنعته بنفسي! بهاتين اليدين!»

أظهر يديه فيما كانت اليزابيت تتظاهر بالبحث عن معطفها.

وذهبنا إذاً لنتناول الغداء. وبطبيعة الحال في السيارة، لأن حماي كان يملك سيارة وسائقاً.

قال: «فلنذهب إلى مطعمنا المعتاد».

لم أجرؤ على سؤاله عن أي مطعم كان يتكلم. ولكن الأمر كان يتعلق بالمكان القديم المألوف حيث كنت أذهب مع أصدقائي. وهو فندق من تلك الفنادق القديمة في فيينا حيث كان المدراء يعرفون زبائنهم أكثر من مستخدميهم، ولا يعاملونهم بصفتهم مستهلكين

يدفعون أموالاً بل بصفتهم ضيوفاً مقدسين.

لكن كل شيء قد تغير كلياً الآن! فالخدام كانوا فتياناً جدداً لا يعرفونني. وكان حموي يوزِّع تحياته عليهم بكثرة مصافحاً إياهم. جلس إلى الطاولة المخصصة له. وأنا، أحسستني غريباً، وأكثر من غريب حتى. صحيح أن القاعة كانت مكاناً أليفاً في ذاكرتي: الستائر والواجهة والسقف المسوّد والموقد العريض الأخضر المزخرف والإناء الصيني بأزهاره الذابلة عند حافة النافذة إلاّ أن أناساً مجهولين كانوا يخدمونني الآن، وهؤلاء الذين كنت أتناول الطعام إلى جانبهم، بدوا بعيدين جداً عني. لم أكن أصغي لأحاديثهم. كان حموي وزوجتي أليزابيت ويولاند زاتماري يتحدثون على المعارض ويرغبون في إنشاء مجلات ونشر إعلانات، ويطمحون إلى حركة ذات تأثير عالمي... ومن يدري؟ كان حموي يقول من وقت لآخر: «سنشركك في المشروع». لكن لم تكن لدي أدنى فكرة عن المشروع الذي يريد إشراكي فيه. لا بل إن مجرد تفكيري في أن «اشترك» في شيء ما، كان يؤلمني في الصميم.

عندما أنهينا غداءنا، هتف حموي:

- «سجِّل هذا على حسابي».

عندئذ ظهر ليوبولد من وراء طاولة الشرب. «الجد ليوبولد»: هكذا كنا ندعوه منذ ست سنوات. هتفت به: «أيها الجد!». فجاء إلى ملاقاتي. لا بدّ أن عمره الآن يزيد على السبعين. اقترب ماشياً على ساقيه المرتجفتين وقدميه الناتئتين اللتين تميزان خدام المقاهي العجائز. للحال عرفتني عيناه الفاتحتان الشاحبتان الملتهبتان خلف نظارتيه الأنفيتين المهتزتين. حتى أن فمه الخالي من الأسنان أخذ

يبتسم لي، وانبسطت عوارضه مثل أجنحة بيضاء. ركض في اتجاهي وأخذ يدي برفق وكأنه يمسك عصفوراً. ثم أخذ يتكلم إليّ بلهجة متعجبة:

ـ آه! كم يسعدني أن أراك ثانية! أن أرى أحداً على الأقل! لا تتأخروا في العودة إلينا. يشرفني أن أخدم السيد بنفسي».

ثم، من دون أن يهتم بالزبائن الآخرين، صاح بأمينة الصندوق:

ـ «زبون! أخيراً!»

أخذ حموي يضحك.

كان عليّ أن أتحدث إلى حمّي. الآن، كنت أرى الدرج بمجمله أمامي، أو هذا ما بدا لي على الأقل، الدرج ينتصب بدرجاته التي لا تُحصى، والتي يصبح ارتقاؤها أصعب فأصعب. كان في الإمكان التخلي عن «ألبزابيت، وعدم الاهتمام بأمرها منذ الآن. لكنني لم أكن أفكر قطّ بهذا الاحتمال. (كانت زوجتي وحتى اليوم أعيش مقتنعاً بأنها لا تزال زوجتي). ربما كنت قد اقترفت خطأ تجاهها، لا بل هذا أمر أكيد. ربما، أيضاً، كان حبي القديم شبه المخنوق يجعلني أعتقد أن ما أفعله، إنما هو إصغاء لصوت ضميري. أو ربّما، أيضاً، كانت تحثني هذه الرغبة المجنونة للشباب، لجميع الشباب، والتي تدفعهم ليعيدوا، بأيّ ثمن، إلى تلك التي أحبوها ثم نسوها، وجهها القديم، أو ربما، أيضاً، كان ذلك بدافع الأنانية البحتة. والآن هذا يكفي. عليّ أن أتحدث إلى حمّي ومن ثمّ إلى أليزابيت.

كان يفترض بي أن أذهب للقاء عمي في حانة فندقي القديم، حيث لم ينسوني هناك، بالتأكيد. ولكي أكون متأكداً، ذهبت قبل الموعد بنصف ساعة، لأعبر عن امتناني، وبالفعل، كانوا كلهم لا يزالون على

قيد الحياة. كان هناك خادمان يستأنفان العمل من جديد، والساقي أيضاً. لم ينسوا، أيضاً، ديوني الصغيرة القليلة. وحتّى هذا أفرحني! كان كل شيء هادئاً وعذباً. كان ضوء السماء ينفذ لطيفاً عبر كوى زجاج الغرفة التي من دون نوافذ. وكانت توجد أيضاً مشروبات قديمة جيدة لما قبل الحرب. عندما وصل حموي، أمرت بإحضار الكونياك. فأتوني بكونياكي المفضل «نابوليون». قال حموي «رجل عفريت!»، لكنه في ذلك كان مخطئاً تماماً.

قلت له إن الموضوع يتعلق بإعادة النظام إلى حياتي أو بالأحرى حياتنا. وإنه ليس في نيتي تأجيل القرارات التي اتخذتها. عليَّ أن أعرف كل شيء في الحال، لأني رجل منهجي.

استمع إليَّ بهدوء. ثم قال:

ـ سأكون صريحاً معك. أولاً، أجهل إن كانت اليزابيت على استعداد للعيش معك. أعني، لا أعرف إذا كانت لا تزال تحبك. هذا شأنك أو بالأحرى شأنكما. ثانياً، كيف ستعيل نفسك؟ أو لنقل ما الذي تحسن صنعه بالتحديد؟ قبل الحرب كنت رجلاً ثرياً من المجتمع الراقي، المجتمع نفسه الذي كان ينتمي إليه إبني!».

إبنه! كان يتكلم عن صهري الذي لم أستشعر بوجوده قطّ. كان قد سها عن بالي تماماً. سألته:

ـ أين هو الآن؟

أجاب حموي: «قُتِلَ»

صمتُّ، ثم أفرغ كأسه دفعة واحدة:

ـ «قتل سنة ١٩١٨».

لأولّ مرة، أحسست بأنه قريب مني وبأنه صديقي.

ثم أردف:

ـ إذاً ليس لديك ما تفعله. لا مهنة لديك. كنتُ مستشاراً تجارياً وقلِّدت أوسمة كثيرة. لكن هذا لا يعني شيئاً في الوقت الحاضر. وزارة الحربية تدين لي بمئات الألوف، ولن ترجع لي مالي. كل ما أملكه الآن هو عقارات وبعض الأموال في المصرف. على أية حال، لا زلت شاباً وفي إمكاني أن أباشر القيام بأشياء جديدة وبمشاريع كبيرة. الآن، كما ترى، أجرّب حظي في الفنون التزيينية. تدربت أليزابيت على يد السيدة الشهيرة يولاند زاتماري. «محترفات يولاند»، تحت هذا الإسم يمكننا عرض حلّينا في العالم أجمع. ومن جهة أخرى، لا يزال في جعبتي أكثر من سهم!...»

كان هذا التعبير الشائع كافياً لأن يوقظ فيَّ شعوراً بالاشمئزاز لا بدّ أنه لاحظ ذلك لأنه قال لي على الفور:

ـ «لم يعد لديكم مال. أعرف ذلك. وأمك تجهل هذا الأمر. استطيع إدخالك في مشاريعي إن كان هذا يعجبك. لكن في البداية تكلَّم مع أليزابيت. تأهب!».

ـ ٢٥ ـ

تكلمت مع أليزابيت. كان الأمر أشبه بنبش شيء كنت قد دفنته بنفسي في التراب. هل كانت المشاعر هي التي تدفعني نحوها؟ أم الشغف. يشدني إليها؟ كنت نزوعاً إلى تحمل مسؤولياتي بحكم ولادتي وتربيتي. ولكي أقاوم النظام الجديد الذي يسود حولي والذي لم أكن أتعرَّف إلى نفسي فيه، كنت أشعر أني ملزم قبل كل شيء بإعادة النظام إلى حياتي الخاصة.

وصلت أليزابيت في الوقت المحدّد إلى دكان الحلوى داخل المدينة حيث كنا نلتقي في بداية غرامنا. كنت أنتظرها في مكاننا القديم، تهزّ في الذكرى والعاطفة. كان يبدو لي أنه يتوجب على رخام هذه الطاولة أن يحتفظ بآثار أيادينا، يديها. فكرة طفولية ومضحكة، أعرف. لكني افترضتها عنوة في المكان الذي دخلت إليه عنوة، علّني أتمكن من إضافة شيء آخر إلى رغبتي في «إعادة النظام إلى حياتي». وعلّني أجد لنفسي ذريعة إضافية لتفاهمي مع أليزابيت. كنت أختبر للمرة الأولى حقيقة أننا لا نعيش الأشياء التي تحدث معنا إلاّ بطريقة

سطحية، وأننا أكثر المخلوقات الأرضية تفاهة وتأهباً للنسيان. كنت خائفاً من اليزابيت، الحرب، الأسر، «ويانكا»، العودة، كل هذه الأمور أضحت في طيّ النسيان. كل ما عشته صرت أقيّمه قياساً على اليزابيت. لكن ماذا تعني اليزابيت حقاً بالمقارنة مع خسارة أصدقائي جوزف برانكو ومانيس ريزيجر وجان بارانوفيتش؟مع خسارة وطني وعالمي؟ لم تكن زوجتي حتى، بالمعنى الصحيح للكلمة ووفقاً للشرائع المدنية والدينية. كان طلاقنا سيتم بسهولة في أيام الملكية القديمة وخصوصاً في الوقت الحاضر. هل صحيح أنني راغب في رؤيتها الآن؟ نظرت إلى الوقت في ساعتي. عليها أن تصل خلال خمس دقائق. لو أنّها تتأخّر نصف ساعة على الأقل. لشدة قلقي، أخذت ألتهم قطع الحلوى الصغيرة بالهندباء المحمّصة والقرفة التي يمكنها أن تغوي العين، لكنها غير قادرة على أن تخدع المذاق. لم تكن هناك مشروبات كحولية في دكان الحلوى.

وصلت اليزابيت. لم تكن وحدها. بل برفقة صديقتها يولاند زاتماري. كنت أتمنّى، بطبيعة الحال، أن تأتي بمفردها. إلاّ أنني لم أتفاجأ حين رأيت يولاند زاتماري برفقتها! بدا لي واضحاً أن اليزابيت لما كانت ستأتي لولا هذه المرأة، ولما كان بإمكانها أن تأتي. وفهمت.

لم أكن أملك أية أحكام مسبقة في ذهني. آه! لا، لأن الأحكام المسبقة كانت تعتبر في المجتمع الذي نشأت فيه، دلالة على الابتذال في التفكير. ومع ذلك، بدا لي هذا الإجهار العلني بما كان يعتبر محرماً، قلة أدب مبالغ فيها. لم تكن اليزابيت لتسمح لإمرأة بأن تأتي معها إلى موعدنا لو أنها لم تكن تحب هذه المرأة. والحالة هذه، كان عليّ أن أذعن لأمرها.

كان ثمة تشابه غريب بين المرأتين بالرغم من أنهما غير متشابهتين، ومع أن وجهيهما مختلفان تماماً. ربما الأمر عائد إلى تشابه ثيابهما وتصرفاتهما. لنقل إنهما كانتا تشبهان بعضهما كأختين أو بالأحرى كأخوين. لحظة دخلتا وأرادتا أن تعرفا من منهما ستتقدم الأخرى، كان ترددهما رجولياً. وكان ترددهما رجولياً أيضاً حين أرادتا أن تعرفا من منهما ستجلس أولاً إلى الطاولة. ما عدت أجرؤ عندئذ على تقبيل يد أي منهما. فقد أكون في نظرهما شيئاً مضحكاً، أو إبن سلالة بائسة، سلالة غريبة تافهة لا معنى لها. وقد أكون عاجزاً إلى الأبد عن تعلم طقوس طائفتهما ومشاركتهما الأسرار التي تنصبان نفسيهما لحمايتها. فاستولَتْ عليَّ وقتئذٍ الفكرة الشائنة التي تقول إنهما من الجنس اللطيف أي من الجنس الدوني. ودفعتني وقاحتي للتعبير عن هذه الفكرة من خلال تصرفاتي التي تصطنع التأنق والملاطفة. وهما، كانتا تجلسان قبالتي واثقتين متحالفتين كأنما لتتحدياني. كان يجمعهما تحالف مضمر ضدي من أقوى التحالفات على الأطلاق، تحالف واضح وضوح النهار. فحين كنت أقول الأشياء الأكثر حيادية، كانتا تنظران إلى بعضهما وكأنهما تعرفان مسبقاً أي نوع من الرجال أنا، وما هي العبارات التي أنا قادر على التفوه بها. أحياناً، كانت إحداهما تبتسم، فترتسم بعد أقل من ثانية الابتسامة نفسها فوق شفتي الأخرى. من حين لآخر، اعتقدت أن أليزابيت كانت تميل نحوي وترمقني سراً غامزة بطرفها، كما لتثبت لي بأنها تنتمي إليَّ في الحقيقة، وأنها لا تطيع صديقتها إلاّ مرغمة، أي قسراً عن إرادتها وميولها. عن ماذا تحدثنا؟ تحريت سائلاً عن عملها. فسمعت محاضرة وافية عن عجز أوروبا عن ردِّ الاعتبار لمواد البدائيين واتجاهاتهم وعبقريتهم. كانت الضرورة تحتم أن يوجِّه الذوق الأوروبي الفاسد في الطريق السويَّة

والطبيعية. والزينة، قياساً لما فهمته، تمثل أمراً في غاية الأهمية. لم أكن على علم بذلك. وافقت، وبطيبة خاطر، على أن يكون ذوق الأوروبيين فاسداً. لكن الأمر الذي لم أكن قادراً على فهمه هو أنه كيف بإمكان فساد الذوق الفني لوحده أن يكون السبب في هلاك العالم بأسره. أليس هذا الانحراف بالأحرى هو نتيجة أو مجرد عارض من أعراض المرض الشامل؟

قالت السيدة يولاند متعجبة:

ـ «مجرّد عارض؟ ألم أقل لك يا أليزابيت إن زوجك متفائل لا أمل في شفائه؟ ألم أحزر ذلك منذ اللحظة التي رأيته فيها؟»

كانت تقول هذه الكلمات واضعة يديها الصغيرتين المربعتين فوق يد أليزابيت. على إثر هذه الحركة، انزلق قفّازا مدام يولاند عن ركبتيها، وسقطا أرضاً. انحنيت لألتقطهما لكنها دفعتني بعنف.

قلت: «أعذريني، فأنا حقاً متفائل لا أمل في شفائه!»

فهتفَتْ:«تباً لك، أنت و«أعراضك»!»

بدا واضحاً أنها لم تكن تفهم معنى الكلمة حتى.

قالت السيدة يولاند: «إلى الملتقى في الساعة الثامنة. سيحاضر هاروفاكس عن العقم الإرادي. لا تنسي يا أليزابيت. إنها السابعة الآن»

فأجابت «أليزابيت: «لن أنسى».

نهضت السيدة يولاند وأمرت زوجتي بغمزة، أن ترافقها.

قالت أليزابيت وهي تتبعها منصاعة باتجاه المغاسل: «أعذرني».

استغرق غيابهما بضع دقائق. كان هذا الوقت كافياً لأدرك أن في إصراري على «إعادة النظام إلى حياتي» إضافة إلى فوضى العالم. والحق يقال، لم أجد فقط نفسي منجراً بصفة شخصية إلى الفوضى، بل كنت أساهم في زيادة الفوضى العامة. كنت قد وصلت بأفكاري إلى هنا عندما عادت المرأتان الشابتان. كانتا قد سدَّدتا الحساب. ولم أنجح حتى في مناداة الساقية لأنهما قد «ضبطتاها» أثناء مشوارهما القصير من الصندوق إلى الحمَّام. ربَّما خشيتا أن أسبقهما إلى ذلك فأوجه إهانة إلى استقلاليتهما. دسَّت أليزابيت في يدي وهي تودّعني، ورقة صغيرة ملفوفة. توارتا باتجاه محاضرة هاروفاكس عن العقم. فتحت الرسالة: «الساعة العاشرة، في مقهى المتحف، وحدي». وعدت من جديد لأغرق في بلبلتي التي لا تنتهي.

كانت تفوح من المقهى رائحة غاز الأسيتيلين، أي مزيج من البصل المتعفن وتقصيب الدواب. لم يكن هناك كهرباء. صعب عليَّ كثيراً أن أجمع شتات نفسي وسط الروائح النفاذة. كانت الرائحة أقوى من الضجة. انتظرت قدوم أليزابيت وأنا في حالة من الذهول، ومن دون أدنى رغبة. لم تعد لي أية رغبة في إشاعة أيّ نظام كان في حياتي. وأستطيع القول إن رائحة الأسيتيلين قد أقنعتني بشكل لا رجوع فيه بأن جهودي في «إعادة النظام» متقهقرة حقاً. لم أعد أنتظر زوجتي إلاّ بدافع اللطف. لكن هذا اللطف لن يذهب إلى حدٍّ أبعد من التوقيت الذي حدّدته الشرطة.

والحق يقال، لأول مرة شعرت أن هذه الشرطة، التي كنت أثور ضدها عادة، هي أعطية السلطات الكريمة جداً. تعرف عملها جيداً هذه السلطات. إذ ترغمنا نحن أيضاً على التخلص من مزايانا البالية وتصحيح أخطائنا الفادحة.

ومع ذلك، وصلت أليزابيت قبل نصف ساعة من الأقفال. بدت جميلة فعلاً. دخلت بمعطفها القصير من فرو القندس بسرعة البرق مثل غزالة يتعقبها أحدهم، تغطي ندف الثلج شعرها وأهدابها، وقطرات من الثلج الذائب خدّيها. كانت كأنها قد طُردت من الغابة لتوّها فجاءت لتحتمي بي.

تكلّمتْ:

ـ «قلت ليولاند إن أبي مريض».

كانت الدموع تغشى عينيها منذ الآن. ثم أخذت تشهق بالبكاء. أجل، بالرغم من الطابع الرجولي للقبة وربطة العنق الظاهرتين من فتحة معطفها، كانت أليزابيت تبكي. أخذت يدها بلطف وقبّلتها. لم تعد تشعر برغبة في أن تشد عل ذراعي. كان صبيّ المقهى يقترب بمظهر نائم. كان هناك مصباحا غاز مشتعلان اعتقدت أن زوجتي ستطلب مشروباً كحولياً. لكنها كانت راغبة في قطعتي مقانق مع الخردل. فكّرْتُ: «الدموع تفتح الشهية عند النساء»، والخردل يبرر احمرار العينين. أخذني الحنان، حنان الذكور الخائن، المشؤوم. طوّقت كتفيها. فاتكأَتْ إلى كرسيها وهي تغمس المقانق في الخردل. والدموع تتابع انهمارها، لكن دون معنى كقطرات الثلج الذائب على معطف فرو القندس.

قالت وهي تتنهد: «قلْ لي، ألست زوجتك؟» ولكن التنهيدة كانت تشبه صيحة فرح.

وفجأة استوت في جلستها. وأمرت من جديد بقطعتي مقانق مع الخردل والبيرة.

أُطفىء المصباح ما قبل الأخير، مما أوجب التفكير في مغادرة

المقهى. أمام الباب، قالت لي أليزابيت:

ـ «يولاند في انتظاري».

أجبتها: «سأرافقك»

مشينا جنباً إلى جنب صامتين. كان ثلج متكاسل يتساقط، ثلج متعفن كسلا. كانت المشاعل هي أيضاً كسولة رافضة الخدمة. شحيحة، كالحة، تخبيء داخل أقفاصها الزجاجية حبة ضوء صغيرة. لم تكن تنير الطرقات بل تجعل ظلامها محسوساً أكثر.

عندما وصلنا إلى بيت يولاند زاتماري، قالت لي أليزابيت:

ـ «هنا، إلى اللقاء».

ودّعتها. ثم سألتها متى بإمكاني رؤيتها من جديد، وهممت بأن أستدير. وفجأة، مدّت يديها نحوي وهي تنتحب:

ـ «لا تتركني... سأذهب معك».

وأخذتها معي! إذن. كان مستحيلاً أن أصحبها إلى أيّ من الفنادق القديمة. ربما تعرّفوا إليَّ هناك. كنا نهيم مثل يتيمين وسط المدينة الكبيرة القاتمة اليتيمة. كانت أليزابيت تتشبث بذراعي وأحسستُ خفقان قلبها عبر الفراء. أحياناً، كنا نتوقف تحت أحد المصابيح. فيستوقف نظري وجهها المبلل. أهي دموع؟ أم ثلج؟ لا أعرف.

ومن دون ان انتبه كيف وصلنا إلى رصيف فرنسوا ـ جوزف. ومن دون أن أعرف كيف ولجنا جسر «أوغارتن». كان الثلج المائع والكسول نفسه يستمر في التساقط. لم نتبادل أية كلمة. ثم لمحنا نجمة ضوء صغيرة فوق أحد فنادق «أونتر أوغارتن شتراس». فعرفنا بماذا تريد أن تبشرنا النجمة، فتبعناها.

كان ورق الجدران لا يزال أخضر غامقاً، كما في السابق. كان الفندق مظلماً. أشعل البوّاب شمعة وأنزل بضع قطرات منها فوق طاولة السرير، ثم ألصقها. كانت هناك فوطة للأيدي معلقة فوق طشت الغسيل. رسم عليها تاج أخضر مستدير وفي وسطه كلمات «غراس غوت»(*)، مطرزة بخيط أحمر فاقع.

في هذه الغرفة، وفي هذه الليلة، أحببت أليزابيت. كانت تقول لي:

ـ «أنا سجينة، يولاند جعلت مني أسيرة لها. لم يكن عليّ أن أتركك في «بادن»، عندما توفي جاك».

وكنت أجيبها:

«لا، لست سجينة. أنت قربي. أنت زوجتي».

كنت أحاول اكتشاف أسرار جسدها. وكان لجسدها أسرار كثيرة. ثمة كبرياء صبيانية ـ اعتبرتها رجولية آنذاك ـ كانت تأمرني بأن أمحو كل الآثار التي خلّفتها يولاند. هل كان ذلك حقاً بدافع الكبرياء؟ أم الغيرة؟

وبطيئاً، كان ضوء الصباح الشتائي يزحف على ورق الجدران الأخضر. أيقظتني أليزابيت. رأيت نظرتها المحدقة بي، وخلت أني أرى واحدة غريبة. رأيت الذعر في عينيها. الذعر والملامة. كانت ربطة عنقها القاسية الرمادية المائلة إلى الفضّي، تتدلى من مسند الكنبة مثل سيف صغير، قبّلتني فوق أجفاني ثم انتفضت زاعقة: «يولاند!»

ارتدينا ثيابنا على عجل وقد استولى علينا خجل لا يفسر. كان

(*) غراس غوت: صباح الخير أو مساء الخير، في اللغة النمساوية.

الصباح يجعلنا نرتجف. في الخارج، كان خشف ناعم جداً يتساقط. وكان علينا أن نمشي مسافة طويلة من الطريق. وبعد أن مشينا ساعة تحت المطر المحبَّب الذي يصفع وجوهنا، وصلنا أمام بيت آليزابيت. نزعتْ قفازيها. كانت يدها باردة. وفيما كانت تبتعد، صحت بها: «إلى اللقاء». لكنها لم تلتفت.

ـ ٢٦ ـ

كانت الساعة الثامنة صباحاً. وكالعادة، كانت أمي تتناول فطورها. قلت لها كالعادة: «صباح الخير يا أمي!». لكن الجواب في هذا اليوم فاجأني: «استعدَّ يا بني!» منذ زمن بعيد لم أسمع هذه التحية الخاصة بتلاميذ المدارس تنطلق من فم أمي، متى كانت آخر مرة سمعتها منها؟ منذ عشر سنوات ربما أو منذ خمس عشرة سنة، حين كنت أذهب إلى المدرسة. ولم يكن يسمح لي وقتئذٍ أن أتناول الإفطار على الطاولة إلاَّ في يوم العطلة، كانت أمي آنذاك تعقب هذه التحية بمزحة بريئة، كانت تبدو لها مع ذلك لاذعة جداً. كانت تسألني: «هل الأحوال سيئة إلى هذا الحدّ فوق مقاعد الدراسة؟» وذات يوم تجرأت وأجبتها: «نعم يا أمي!». فمنعت من الجلوس إلى الطاولة ثلاثة أيام متتالية.

في هذا الصباح، أخذت تشتكي من المربيات:

ـ إني أتساءل أين بإمكانهم أن يعثروا على مثل هذه الكمية من الروتاباغة(*)؟ يقولون إنها صحية وإن الـ...!»

توقفت عن الكلام. عمرها لم تتلفظ شتيمة حتى النهاية. التهمتُ الروتاباغة والمرغرين والقهوة. كانت قهوتي لذيذة. اكتشفت أن خادمتنا تحضرها لي في ركوة خاصة. وأدركت أن أمي المسكينة العجوز تخبىء من أجلي القهوة الطازجة «مينك»، التي حصلت عليها بكثير من الدهاء. فيما تكتفي من أجلها ببنّ مستخلص من مطحون الهندباء، ولكن، وجدت أن من واجبي أن أتظاهر بجهلي لهذا الأمر. إذ أن أمي لم تكن تسامح في أن يكشف أحد خدعاتها الصغيرة الستراتيجية. كان عليَّ اصطناع العمى، لأنها من الكبرياء بحيث تصير ميّالة إلى الانتقام.

بدأت من دون تمهيد:

ـ «قابلْت عزيزتك ألبزابيت إذاً». عرفْتُ، جاء حموك لزيارتي البارحة. يكفي أن أبذل جهداً صغيراً فأفهم كل شيء في الحال. لقد أخبرني أنك تحدثت إليه. فقلت له إني أستطيع معرفة الأخبار منك. لكن هذا لم يردعه عن الكلام! لقد أعلمني بانك تريد إعادة النظام إلى حياتك. فما رأي ألبزابيت بذلك!».

ـ «لقد التقينا يا أمي

ـ أين؟ ولماذا لم يكن لقاؤكما هنا؟

ـ لم يكن الأمر محضّراً له، يا أمي. ثم أن الوقت كان متأخراً.

(*) الروتاباغة: نوع من الملفوف اللفتي.

ـ يريد حموك إذاً أن يشركك في أحد مشاريعه. لا مهنة لديك ولا يمكنك أن تعيل امرأة. لا أعرف ما هو المشروع الذي ينوي إدخالك فيه. على كلٍّ، يجب أن يكون لك مدخول، فنحن من دون مال. كل ما نملكه وضع تحت شكل قروض للحرب. وبالتالي مفقود كما الحرب. بقي لنا فقط هذا البيت. حموك يقول إنه من الممكن رهنه. في وسعك أن تتحدث بهذا الشأن إلى كاتبنا الشرعي السيد كينيوير. لكن أين ستعمل؟ وفي أيّ مجال؟ وهل تفهم شيئاً ما في هذه الفنون التزيينية؟ يبدو أن حماك مطلّع جداً في هذا الخصوص. كانت محاضرته مطوّلة أكثر من محاضرة عزيزتك أليزابيت. وتلك السيدة الأستاذة التي تدعى كشكمت. أي نوع من النساء هي؟

زاتماري، يا أمي.

هزّت أمي رأسها موافقة:

لا مانع من أن يكون إسمها زيكيلي.

ـ شعرها قصير يا أمي. ولا أستطيع تحملها.

ـ و... أليزابيت صديقتها؟

ـ «صديقتها المقرّبة جداً».

ـ «تقول، المقرّبة جداً؟»

ـ أجل يا أمي».

ـ «آه! إذاً لا تتعب نفسك يا ولدي. أعرف هذا النوع من الصداقات عن طريق السماع. وهذا يعطيني فكرة كافية عنها. لقد قرأت الكثير عن هذا الموضوع يا بني! أنت لا تملك فكرة عن الأشياء التي أعرفها! لو أن لأليزابيت عشيق لكان الأمر أفضل. إذْ

من الصعب جداً التخلص من العشيقات النساء. ثم منذ متى هناك نساء أستاذات؟ وأي علم تلقنه هذه الـ كشكمت»؟

فاستدركْتها:

ـ «زاتماري يا أمي».

وبعد قليل من التفكير، قالت أمي: «لا كاتوس، ما الفرق. المهم، ما الذي تنوي أن تفعله لتواجه أنثى أستاذة؟ لو أنك تواجه ملاكما أو ممثلاً، لكان الأمر مختلفاً».

كم كنت ضنين المعرفة بأمي! إن السيدة العجوز التي تذهب مرة واحدة فقط في الأسبوع إلى «ستادبارك» مدة ساعتين «لتتنشق الهواء». والتي من أجل الغاية ذاتها تذهب في العربة إلى «براتر» مرتين فقط في الشهر. هذه السيدة كانت على بيِّنة تماماً لما يسمونه «الشذوذ الجنسي»، لا بدَّ أن هذا الموضوع كان محور أفكارها وتأملاتها طيلة الساعات الطويلة التي تقضيها وحيدة في ضوء الشقة الحفيف، وهي تجول من غرفة إلى غرفة، متكئة إلى عصاها السوداء، منعزلة وغنية بالتجربة، ساذجة ومطلّعة، غريبة عن العالم وعارفة بما فيه. ومع ذلك، كان عليّ أن أبادر للدفاع عن اليزابيت. وإلاّ من يدري أين ستذهب أمي بأفكارها؟ إنها زوجتي، وكنت خارجاً لتوي من بين ذراعيها. كنت لا أزال أشعر في فجوة يدي، بالنضارة الطرية لنهديها الفتيين، ولا أزال أتنشق أيضاً رائحة جسدها، ولا تزال صورة وجهها وعينيها شبه المغمضتين من اللذة تنعكس في عيني، وفمها يسدُّ شفتي. كان عليّ أن أبادر للدفاع عنها. ففي مبادرتي للدفاع عنها طريقة لأستعيد حبي لها.

قلت: «هذه السيدة الأستاذة لا تستطيع شيئاً حيالي. فأنا واثق

من حب أليزابيت لي. البارحة مثلاً...»

لم تدعني أمي أكمل بل قاطعتني قائلة:

ـ «واليوم؟ ماذا عن اليوم؟ ألم تذهب للقاء الأستاذة هالاسكي!»

ـ «زاتماري يا أمي».

ـ «أسماء من هذا النوع لا تهمني يا بني. تعرف ذلك جيداً. إذاً لا تعده عليَّ باستمرار. إذا كنت تفكر في العيش مع أليزابيت، عليك أن تؤمن لها حاجاتها. عليك إذن كما يقول حموك أن ترهن بيتنا. ثم عليك أن تباشر القيام بعمل ما، كما يقول حموك. لكن ماذا دهاني، لماذا قلت بيتنا؟ هذا البيت لك. بعد ذلك، ستقوم السيدة الأستاذة، ذات الاسم المستحيل، لوحدها بصناعة عقود المرجان الزائفة من أكواز الصنوبر... إن شاء الله! بقيت لنا في الدور السفلي شقة خالية مؤلفة من أربع غرف، على ما أعتقد. والناطور على علم بالأمر. لديَّ أيضاً بعض المال في المصرف. سنتقاسمه سوية. اسأل السيد كينيوير عن المبلغ. ويمكننا أن نطبخ سوية. هل تتقن أليزابيت الطبخ؟

ـ لا أعتقد يا أمي.

ـ من زمان كنت أتقن الطبخ. بإمكاني أن أتذكّر كيفية تحضيره إذن المهم هو أن تتمكن من العيش مع أليزابيت، وأن تتمكن هي من العيش معك».

لم تعد تقول «عزيزتك أليزابيت». فشعرت أن هذه لفتة خاصة تعبر عن العطف الأمومي.

ـ «إذهب للقيام بجولة في المدينة، يا عزيزي. إذهب لرؤية

أصدقائك. ربما لا يزالون على قيد الحياة. ما رأيك؟ هل ستقوم بجولة في المدينة؟

أجبتها: «نعم يا أمي».

ذهبت لزيارة ستلماتشر في وزارة الحربية علّني أعرف منه ماذا حلَّ بأصدقائي. لا بدَّ أنه سيكون هناك. حتى ولو صارت وزارة الحربية مجرد ديوان مراسلات للدولة، فإن ستلماتشر لن يتحرك بالتأكيد من هناك. ولقد وجدته بالفعل. كان قد صار عجوزاً، أبيض الشعر، محني الظهر. كان جالساً إلى طاولة عمله القديمة في مكتبه القديم. لكنه كان يرتدي ثياباً مدنية، ثياباً غريبة فضفاضة، كبيرة على مقاسه وفوق ذلك كله، مقلوبة! من حين لآخر، كان يمرر إصبعيه بين رقبته وقبّته المستعارة. كان القماش الثقيل يزعجه، وأردانه تزعجه فيدخلها باستمرار إلى كميه. بدا لي عالماً بمجريات الأمور: شوجنيسكي لا يزال حياً ويقيم في «أوف درفيدن» وكان دفوراك وزيكينيس وهولرسبرغ، وليختنتال، وستر وهوفر، يلعبون الشطرنج كالعادة في مقهى «جوزفينوم دو لافارينغرشتراس». أما شتيشتال وهالاتس وغرونبرغر فقد ماتوا. فذهبت أولاً لزيارة شوجنيسكي.

كان جالساً في داره القديم، في شقته القديمة. بالكاد عرفته لأنه حلق شاربيه! لكن لأيّ سبب؟ سألته.

فأجابني: «لكي أصير شبيهاً بخادمي. فأنا الآن خادم نفسي. أفتح لنفسي الباب. وألمّع بنفسي حذائي. وعندما أحتاج لشيء ما أقرع الجرس وأدخل بنفسي إلى الغرفة قائلاً: «ماذا تريد يا سيدي الكونت؟ ـ سجائر من فضلك!» عندئذ أرسل نفسي إلى دكان التبغ.

أما فيما يختص بالطعام، فلا يزال في إمكاني أن آكل مجاناً عند العجوز «هكذا كنا نسمي ضمن حلقتنا السيدة ساشر(*)». والخمر، يمكن تدبره عند السمين (هكذا كنا نسمي ضمن حلقتنا لوتغارتز دو هتيزنغ). لكنَّ كزاندل موجود في شتينهوف... إنه مجنون...

بهذه الكلمات المحزنة، أنهى شوجنيسكي تقريره.

ـ «مجنون؟»

ـ «كلياً. اذهب لزيارته أسبوعياً. التمساح (أي سافيكا عمّ الأخوين شوجنيسكي) صادَرَ أملاكه. وهو يتكفل بتطبيب كزاندل. أنا، لا يحق لي أن أعارض. هذه الشقة محجوزة ولا يمكنني الإقامة فيها أكثر من ثلاثة أسابيع. وأنت يا تروتّا، ما هي أخبارك؟

ـ «أنا سأقوم برهْن بيتنا. لقد تزوجت كما تعرف، وعليَّ أن أعيل زوجتي».

هتف قائلاً: «وأنا أيضاً، متزوج. وزوجتي في بولونيا. فليهبها الله هناك صحة جيدة! لقد اتخذت قراراً بأن أتكل على الله في كل شيء، الله القادر على كل شيء. فهو الذي صبَّ لي حسائي، حساء الإفلاس، ولكني أمتنع عن التهامه».

صمت قليلاً. ثم ضرب الطاولة بيده وهو يزعق:

ـ أنتم السبب في كل ما حصل، أنتم يا جماعة... (راح يفتش عن كلمة، وأخيراً تبادرت واحدة إلى ذهنه)، يا جماعة الأوباش. مزاحكم التافه في المقاهي هو الذي دمّر الدولة. كان كزاندل لا يكف عن التكهن بذلك. كنتم ترفضون أن تفتحوا أعينكم على أغبياء جبال

(*) السيدة ساشر: صاحبة مطعم شهير في فييّنا.

الألب وسوديتيّ بوهيميا، وعلى كل أحفاد نيبيلونجين الفظّين وهم يسيئون إلى قومياتنا ويذلونها. إلى أن انتهى بهم الأمر إلى الحقد على الملكيّة وخيانتها. إن الخونة ليسوا التشيكيين ولا الصربيين ولا البولونيين أو الروثينيين بل هم التوتونيّون(*) وحدهم وأعني بذلك القوميّة الرسميّة.

اعترضْتُ:

- «لكني من عائلة سلوفينية».

قال لي بهدوء: «سامحني. آه لو أن توتونياً واحداً في قبضتي الآن. (ثم انفجر غاضباً:) إئتني بتوتوني لأخنقه! سنذهب للبحث عن واحد منهم. تعال معي ألى مقهى «جوزفنيوم».

وهناك التقينا بدووراك وزيكينيي وهالرسبرغ وليختنتال وستروهوفر. كان معظمهم في البذلات العسكرية. وصاروا كلهم الآن ينتمون إلى المجتمع القديم. كانت ألقاب النبالة قد ألغيت، لكن ما فائدة هذا؟

كان زيكينيي يقول: «من لا يعرفني بإسمي الصغير، فهو لم يتلقَّ تربية جيدة إذن».

كانوا يلعبون الشطرنج دون كلل.

صاح شوجنيسكي: «أين السوديتي؟

أجاب السوديتي: «حاضر!»

كان البابا كونز وهو من أعضاء الحزب الاجتماعي الديمقراطي

(*) التوتونيّون: شعب ألمانيا القديم.

ورئيس تحرير جريدة الحزب متأهباً طيلة الوقت ليثبت بأدلة تاريخية ـ أن النمساويين هم بحدّ ذاتهم ألمان.

صاح زيكيتيي: «اثبت لنا ذلك»

أمر بكأس مزدوجة من «السليفوفين» وراح يباشر في عرض البراهين لكن أحداً لم يكن يصغي إليه.

وفجأة زعق شوجنيسكي الذي كان يخسر لتوّه جولته في الشطرنج: فلينزل الله العقاب بالسوديتيين».

ثم ترك كرسيّه وهرع إلى البابا كونز رافعاً قبضتيه. فأمسكوه وفمه مزبد وعيناه محمرتّان.

وزعق أخيراً: «يا أيها «التّيوس» يا أيها المتحجرون!

وبعد أن بلغ ذروة غضبه، عاد إلى هدوئه بلمحة بصر.

لم أكن أشعر بارتياح عند رجوعي إلى أهلي وأصدقائي. كنا قد فقدنا جميعاً موقعنا ومركزنا وبيتنا وقيمتنا وماضينا وحاضرنا ومستقبلنا. كل صباح حين نفيق وكل مساء حين ننام، كنا نلقى الموت الذي دعانا عبثاً إلى عيده الكبير. كان كل واحد منا يحسد هؤلاء الذين قضوا في ساحة الشرف. لأنهم يرقدون تحت التراب، وغداً في الربيع المقبل، ستعطي جثثهم الحياة للبنفسج. أما نحن، فقد رجعنا من الحرب عاقرين أبديين، منهكي القوى، أبناء ذريّة محكوم عليهم بالموت، والموت نفسه قد مقتهم. وكان القرار النهائي لمجلس المراجعة الجنائزي ينص ما يلي: «غير جديرين بالموت».

ـ ٢٧ ـ

كنا نعتاد كلّنا على ما هو غير عادي. ونعتاد على غفلة منّا إن جاز التعبير. ثم نستعجل في التكيّف ونجدّ في مطاردة ما كان يثير احتقارنا واشمئزازنا. نأخذ في حبّ يأسنا ونتعلق به كما نتعلق بأعداء أوفياء. ونشعر بالأمان داخل حجر هذا اليأس ممتنين شاكرين له التهامه لمشاكلنا الصغيرة الخاصة. «أجل، شاكرين لهذا اليأس اللامتناهي الذي لا تستطيع أيّ تعزية أن تضاهيه، ولا لأيّ من همومنا اليومية الصغيرة ان تصمد في وجهه. إن الخضوع المرعب للأجيال الحالية لنير أشد رعباً، لا يمكن له أن يُفهم أو أن يبرر حسب رأيي، إلاّ إذا اعتبرنا أنه في أساس الطبيعة البشرية أن تفضل النكبة الشاملة التي تلتها كل شيء في طريقها، على الحزن الخاص. إن نكبة كبيرة تُغرق سريعاً في خضمها المشاكل الخاصة والشؤم إن أمكنني التعبير. لهذا السبب، أُغرمنا في تلك الأيام بيأسنا اللامحدود.

آه! لكن هذا لا يعني أننا كنا غير قادرين على اقتناص بعض

المباهج الصغيرة من هذا اليأس أو على شرائها منه إن اقتضى الأمر، أو على استراقها عن طريق التملّق أو القوة. كان يحدث لنا مراراً أن نمزح وأن نضحك. كنا ننفق المال الذي لم نعد نملكه والذي لم تعد له أيّ قيمة أيضاً. كنا نعير ونستعير، نتلقى الهدايا ونقدمها، نستدين ونسدّد ديوننا، ربّما على هذا النحو سيمضي الناس الأيام التي تسبق يوم الحساب، مستخرجين العسل من النباتات السامة، ممجّدين الشمس علّة الحياة قبل أن تنطفىء، مقبّلين الأرض أم الخصب قبل أن تيبس.

كان الربيع يقترب، ربيع فييّنا الذي لا يمكن لأيّ أغنية ناحبة أن تفسده أبداً. فليس هناك أغنية شعبية أنغامها أشجى وأكثر تأثيراً من تلك التي يطلقها ناي بلبل في «فونيفيارك» أو في «فولكسفارتن». وما من مقطع شعري كلامه أبلغ من النداء المشوّق، والفظّ والأجش مع ذلك، للبائع المتجول الذي يبسط بضاعته في نيسان أمام تخشيبة في «براتر»، وهل أحدٌ بإمكانه أن يغنّي الذهب الناعم لأزهار «السيتيز» التي تحاول عبثاً الاختباء خلف الأخضر الزاهي للشجيرات المجاورة؟ كان عطر البيلسان العذب يفوح وكأنه وعد بالعيد، وأزهار البنفسج في الـ «فيزفالد» تصير زرقاء. والعشاق يتجمعون. ونحن، في مقهانا المعتاد، نتفاصح في الكلام ونلعب الشطرنج والبلابل والتاروت، ونخسر ونربح مالاً دون قيمة.

كان الربيع يعني لأمي أن بإمكانها القيام، ابتداءً من ١٥ نيسان، بنزهة في العربة إلى «براتر»، مرتين في الشهر وليس مرة واحدة كما كانت تفعل في الشتاء. كان عدد العربات يتقلص والأحصنة تموت من وهن الشيخوخة. كان سيجري ذبح أحصنة كثيرة وتُصنع منها مقانق للأكل. كان يمكننا رؤية القطع المفكوكة للعربات القديمة

منتشرة في حظائر الجيش القديم. تلك العربات ذات الإطارات المكسوة بالمطاط والتي كانت تركب فيها، فيما مضى، عائلات تشيرشكي وبالافيسيني وسترنبرغ واشترهازي وديتريشتن وثروتمانسدورف كانت أمي الحذرة بطبيعتها والتي جعلها العمر أكثر حذراً، قد اتفقت مع أحد أواخر الحوذيين. كان يأتي لأخذها بانتظام مرتين في الشهر وفي الساعة التاسعة صباحاً. كنت أحياناً أرافق أمي في نزهاتها وخصوصاً في الأيام الماطرة. كانت تخاف أن تكون لوحدها عند حدوث الكوارث. وكان وابل مطر خفيف يشكل بالنسبة لها كارثة. قليلاً ما كنا نتكلم في عتمة العربة الهادئة.

ثم أخذت أمي تقول: «سيِّد كزافييه. حدِّثنا عن شيء ما».

«التفت إلينا تاركاً أحصنته تقفز لبضع دقائق على هواها»، وأخذ يحدثنا في مواضيع شتى. كان إبنه الشاب المثقف الراجع من الحرب مناضلاً شيوعياً.

قال كزافيه: «إبني يعتقد أن الرأسمالية أفلسَتْ. إنه ذكي جداً ويعرف ماذا يريد. لكنه لا يفهم شيئاً في قيادة الأحصنة.»

فقالت له أمي: «هل أنا رأسمالية أيضاً؟

- نعم، بالتأكيد. فكل الذين يعيشون من دون عمل هم رأسماليون.

- والشحاذّون أيضاً؟

- صحيح أنهم لا يعملون، لكنهم لا يتنزهون في عربة في «باترشبيتز» كما تفعلين يا سيدتي».

فتوجهت أمي إليَّ بالكلام: «إنه يعقوبي!»

كانت تظن أنها بهذه العبارة إنما تتكلم لغة المالكين. لكن يبدو أن الحوذي قد فهم قصدها، لأنه استدار نحونا قائلاً:

- «لا إبني هو اليعقوبي!».

وعلى هذا، ضرب بسوطه، وكأنه كان يصفِّق لنفسه تقديراً لثقافته التاريخية.

على مرّ الأيام، كانت أمي تزداد تظلّماً، وخصوصاً مذ قررت أن أرهن بيتنا. فالفنون التزيينية وأليزابيت والسيدة الأستاذة والشعر القصير والتشيكيون والاجتماعيون - الديموقراطيون واليعقوبيون واليهود واللحم المعلّب والأوراق المالية وأوراق البورصة وحموي، كل هذه الأشياء كانت تثير احتقارها وعدائيتها. وبناءً على هذا الأساس صار كاتبنا الشرعي السيد كينيوير، وهو أحد أصدقاء أبي القدامى، يدعى «اليهودي»، وخادمتنا «اليعقوبية»، وبوّابنا «اللامتسرول»(*)، والسيدة يولاند زاتماري كشكمت بكل بساطة.

وظهر في حياتنا آنذاك شخص جديد وهو كيرت فون شتتنهايم الوافد حديثاً من «مار براندبورغ»، والمصمم على نشر صناعة الفنون التطبيقية في العالم أجمع. كان مظهره الخارجي يوحي بأنه من هؤلاء الناس الذين يمكن وصفهم «بالمتأصلين». كان مزيجاً من بطل عالمي في التنس ووجيه قروي مع قليل من رجل محيطي وسمسار بحري. كان وافداً لتوّه من «بوميراني» الواقعة على بحر البلطيق، لا بل من براح «لونبورغ». وكنا محظوظين نسبياً لمجرد أن السيد فون شتتنهايم آت من «براندبورغ».

(*) اللامتسرول: لقب أطلق على الثوار الفرنسيّين سنة ١٨٩٣.

كان طويل القامة، مفتول العضلات، أشقر منمشاً. كان جبينه موسوماً بالندبة التي تميِّز بشكل حتمي «ألبوروس»(*). كان ارتداؤه النظارة الأحادية من التصنع بحيث بتنا نشعر أنه طبيعي. كان يصدف لي أحياناً أن أستعين بنظارة أحادية على سبيل التأنق ومن أجل راحتي. لكنَّ هناك وجوهاً بلطيقية أو «براندبورغوازية» تبدو معها النظارة الأحادية وكأنها عين ثالثة، لا كأنها مسعفة العين الطبيعية، بل قناعها الزجاجي. عندما كان السيدفون شتتنهايم يثبت نظارته الأحادية في محجره، كان يشبه عندئذ السيدة زاتماري حين تشعل سيجارتها. وعندما كان السيد فون شتتنهايم يتحدث، أو يستثار في الحديث، كانت ندبة قايين التي يحملها في جبينه تصطبغ بحمرة شديدة. لكن الرجل كان يستثار عبثاً، ذلك أن العبارات التي يستعملها تنافي تماماً حماسه. كان يقول مثلاً: «أستطيع القول إذاً أنني بقيت منذهلاً» أو: «كما أقول لكن دائماً، يجب ألا نيأس أبداً». أو: «أراهن عشرة مقابل واحد، وأضع يدي في النار»، الخ، الخ... بالطبع، لم يكن رهننا كافياً فوعدنا السيد فون شتتنهايم بأن يهتم بشؤون «محترف اليزابيت تروتا»، لقاء مبلغ كبير من المال، جمعني حموي به عدة مرات. وهكذا انتهى بي الأمر إلى الاشتراك في تجارة الفنون التطبيقية، وهذا بسبب الرهن. كان عليّ إذاً أن أقدّم أوراقي إلى شريكنا الثالث. لم نكد نتبادل بضع جمل حتى هتف السيد فون شتتنهايم قائلاً:

ـ «أعرف كونتاً من عائلة تروتا».

(*) البوروس: أعضاء تجمع طلابي يزاولون عادة المبارزة بالمِغول وهو سيف طويل ودقيق وحاد.

فأجبته: «لا بدَّ أنك مخطىء. لا يوجد كونت من عائلة تروتا. هناك فقط أشخاص في رتبة بارون. هذا إذا لم يكونوا كلهم قد ماتوا».

ـ «لكن بلى، تذكّرت، كان باروناً، الكولونيل العجوز!

ـ «في هذا أنت أيضاً مخطىء. عمي محافظ وليس باروناً.

ـ آسف... (واحمرّت ندبته).

خطرت للسيد فون شتتنهايم فكرة أن يعتمد إسم الشركة التالية «محترفات يولاند» وينزل تحت هذا الإسم مؤسستنا في السجل التجاري. كلّما كنت أذهب إلى المكتب، كنت أجد اليزابيت منكبّة على العمل. كانت ترسم أشياء غريبة: نجوماً بتسعة أشعب على جوانب مجسَّم ثماني، أو يداً من عشرة أصابع مشغولة بخيط من النحاس الأصفر وعنوانها: «حاملة الحظّ كريشنامورتي»، أو ثوراً أحمر على خلفية سوداء وإسمه «أبيس» أو سفينة مع ثلاثة جذافين تدعى «سالامين»، أو إسوارة على شكل حيَّة إسمها «كيلوباترا».

كانت هذه الأفكار من تصميم الأستاذة يولاند زاتماري من تنفيذ أليزابيت. في الحقيقة، كان يسود بيننا جوّ من الودّ المصطنع المشحون بغضاً والذي يضمّ في طياته حقداً دفيناً مغذياً غيرةً متبادلة. كانت أليزابيت تحبني، أنا واثق، لكن السيدة يولاند زاتماري كانت ترعبها وتثير فيها ذلك النوع من الخوف الذي قد ينجح الطب الحديث في تحديده ولكن ليس في تفسيره. ومذ دخل السيد فون شتتنهايم إلى محترفات يولاند بصفته شريكاً ثالثاً، أخذ حموي والسيدة الأستاذة يعتبرانني مزعجاً وحاجزاً في طريق الفنون التزيينية وعاجزاً عن القيام بأي عمل مفيد وغير جدير البتّة

بمشاريع مؤسستنا الفنية والتجارية. كنت في نظرهم فقط زوج أليزابيت.

أخذ السيد فون شتتنهايم يكتب نشرات دعائية في جميع اللغات ويبعثها إلى جميع أنحاء العالم. لكن، كلّما كان تلقيه للردود يخف، كلّما كان حماسه يزداد. وصل الكرسيّان الأصفران المخططتان بالأسود أولاً، ثم تلتهما الستائر الجديدة وأخيراً مصباحان مزوّدان بكمّة مؤلفة من ستة أرداف من الورق الياباني(*)، وخارطة جغرافية حيث كل بلدان العالم ومدنه مشار إليها بدبابيس، جميع البلدان بما فيها تلك التي لا تموّلها شركتنا.

في الأماسي التي كنت أذهب فيها للقاء أليزابيت، لم نكن نتحدث لا عن شتتنهايم ولا عن السيدة يولاند زاتماري ولا عن الفنون التطبيقية. كان جو من التفاهم يسود بيننا. كنا نعيش ليالي الربيع المشبعة بالعذوبة. ليس هناك أدنى شك: كانت أليزابيت تحبني.

وأنا، كنت صبوراً. كنت انتظر، انتظر اللحظة التي ستقول لي فيها من تلقاء نفسها بأنها راغبة كلياً في العيش عندنا. كانت شقتنا في الدور الأرضي جاهزة. وأمي لم تعد تسألني عن نوايا أليزابيت. من حين لآخر كانت تفلت بعض الجمل مثل: «عندما تقيمان في البيت الجديد» أو «حين تنتقلان للإقامة عندي»، أو أيّ شيء من هذا القبيل.

اكتشفنا عند أواخر الصيف أن محترفات يولاند لم تعد تجني أرباحاً فوق ذلك، كان حموي يصيب التعاسة «بسهام قوسه الأخرى». كان يراهن على المارك بإيعاز من السيد فون شتتنهايم.

(*) الورق الياباني: ورق عاجي اللون مصنوع أصلاً في اليابان.

وكانت أسعار المارك تزداد هبوطاً. واقتضى الأمر أن أرهن بيتي مرة ثانية رهناً أقوى من المرة الأولى. ما كدتُ أحدث أمي عن ذلك حتى رفضت أن تسمع المزيد. قمت بحمل جوابها إلى عمي.

فقال لي: «كنت أعرف على الدوام أنك عديم الكفاءة. سأذهب إليها إذاً بنفسي وأقنعها».

لم يذهب لوحده إلى أمي بل برفقة السيد فون شتتنهايم. كانت أمي تخاف من الغرباء وترتعب منهم. فطلبت مني أن أبقى معها في البيت.

وعندئذ حدث شيء خارق: أعجبت أمي بالسيد فون شتتنهايم. لاحظت أنها كانت تميل بجذعها قليلاً ناحيته، خلال الاتفاق الذي جرى في الدار، لكي تسمع بشكل أفضل فيض عباراته المبتذلة. كانت تقول: «كم هو ظريف». ولعدة مرّات، وقّعت عباراته الأكثر سخافة بكلمات: «ما أظرفه». كان السيد فون شتتنهايم يقوم، هو أيضاً، بإلقاء محاضرة عن الفنون التزيينية بشكل عام، وعن نتاج محترفات يولاند بشكل خاص. ومع أن أمي العجوز الطيبة لم تكن تفقه شيئاً عن الفنون التزيينية، لا إثر محاضرة أليزابيت ولا إثر محاضرة السيد فون شتتنهايم، فإنها بالرغم من ذلك كانت تردد باستمرار: «فهمت. الآن فهمت».

ثم تفضل السيد فون شتتنهايم قائلاً:

ـ «بيضة كريستوف كولومبوس».

فردّدت أمي وراءه بانصياع مثل صدى:

ـ «بيضة كريستوف كولومبوس! سنرهن البيت مرة ثانية».

عندما عرف كاتبنا الشرعي السيد كينوير بالأمر، اغتاظ.

قال لي: «أحذِّرك. هذا المشروع لن يكتب له النجاح. حموك لا يملك فلساً، أنا أكيد. لقد استعلمت بهذا الخصوص. والسيد فون شتتنهايم يعتاش من القروض التي تضمنها بنفسك. يدّعي أن عنده مصالح في برلين ولكن زميلي في برلين يقول لي إن هذا ليس صحيحاً. بإسم صداقتي مع المرحوم أبيك، أقول لك الحقيقة، صدّقني. الأستاذة يولاند زاتماري ليست أعلم مني في مجالها. فهي لم تلتحق بأي جامعة سواء في فيينا أو في بودابست. أني أحذِّرك يا سيد تروتا».

كانت عيناه اليهوديتان السوداوان الصغيرتان تلمعان خلف نظارته الأنفية المائلة. كان نصف شاربيه ينتصب نحو الأعلى، والنصف الآخر ينخفض على نحو محزن، مما يعبِّر عن طبيعته المزدوجة. فبعد خطاب مسهب قائم عن إفلاسي المحتم، خلص فجأة إلى هذه النتيجة وهو يزعق قائلاً: «لكن كل شيء سينتهي بشكل حسن! فالله أب رحوم!» في الواقع كان يكرر دائماً هذه الجملة حين يكون الأمر متعلقاً بإحدى المسائل المعقدة. كان حفيد إبراهيم هذا، وريث النعمة واللعنة في آن، العابث كنمساوي، الكئيب كيهودي، الحسّاس لكن حتى الحدود التي تصير فيها العواطف خطرة، النافذ البصيرة رغم نظّارته المرتعشة المرتجفة، قد صار على مرّ الأيام بمثابة أخ لي. أحياناً كثيرة كنت أدخل عليه في غرفة عمله دونما سبب أو ضرورة. كان يحتفظ فوق مكتبه بصورة إبنيه: الكبير قُتل في الحرب، والثاني يدرس الطبّ.

كان الدكتور العجوز كينوير يقول عن ابنه الأصغر: «رأسه مترع بالأفكار الاجتماعية الهادفة والسامية، لكن كم سيكون اكتشافه

لدواء يشفي من مرض السرطان أكثر أهمية من هذا كله! أخشى أن يكون السرطان قد أصابني هنا في كليتي. يتوجب على ابني الذي يدرس الطب أن يفكر في أبيه العجوز بدل أن يتوق إلى إنقاذ العالم. المنقذون وما أكثرهم! قلْ لي، ألا ترغب أنت أيضاً في إنقاذ الفنون التطبيقية؟ وأمك أيضاً أرادت إنقاذ الوطن، فوضعت ثروتها كلها في تصرف قروض الحرب. ولم يتبقَّ لها سوى تأمين زهيد على الحياة. ربَّما أمك تتصور أن هذا يؤمن لها شيخوخة مطمئنة البال، لكن هذا بالكاد يؤمن لها معيشة شهرين على الأكثر. أنت لا تملك مهنة، ولن يكون في وسعك إيجاد مهنة. إذا لم تباشر في كسب بعض المال، فالإفلاس وشيك. لذا سأقدم نصيحة لك: عندك بيت، افتحه فندقاً عائلياً. وحاول أن تقنع أمك بالفكرة. الرهن الذي قمت به لن يكون الأخير، وسيضطرك الأمر للقيام برهن ثالث ورابع. صدقِّني الله أب رحوم!»

صار السيد فون شتتنهايم يأتي مراراً لزيارة أمي. لم يكن يعلم مسبقاً بقدومه إلاّ فيما نَدَر. كانت أمي تستقبله بطريقة ودية، وفي بعض الأحيان، متهللة. كنت أرى، وأنا يعتريني الحزن والذهول، كيف أن هذه السيدة العجوز الصارمة والجدية، تتقبل وتوافق وتمدح وتمجِّد بفرح متساهل مزحات هذا الرجل التافهة وعباراته المتبذلة وتصرفاته المزعجة. كانت للسيد فون شتتنهايم طريقة فظيعة في طيّ ذراعه ورفع يده اليسرى إلى مستوى عينيه لينظر إلى ساعته. كان يبدو لي عندئذٍ وكأنه يلطم بمرفقه جاراً جالساً إلى يساره ولكن غير موجود لحسن الحظ. عندما كان يشرب القهوة، كان يرفع إصبعه الصغرى وكأنه مدبِّرة منزل. وكان يضع في هذه الإصبع بالذات خاتماً ضخماً حفرت عليه شعاراته. شعارات تشبه

حشرة. كان يتحدث بصوته الطالع من حلقومه الذي يميِّز بعض البروسيين. وكأنه طالع من أسفل مدخنة لا من قعر الحنجرة، محوّلاً بذلك الكلمات الأكثر أهمية التي يتلفظ بها أحياناً إلى كلمات فارغة جوفاء.

هاكم أيّ نوع من الرجال أعجبت به أمي العجوز الطيبة! وكانت تقول عنه «ظريف»!

ـ ٢٨ ـ

لكن يبدو أنني أنا أيضاً، وعلى غير علم مني في بادئ الأمر، بدأت أقع تحت تأثير سحره شيئاً فشيئاً. ربَّما لأنني كنت في حاجة إليه. في حاجة إليه بسبب أمي. إذ كان يشكل همزة الوصل بين بيتنا وبين ألبزابيت. ومع الأيام، كان يصير مستحيلاً عليَّ أن أوفِّق بين هاتين المرأتين، إن لم يكن بين هؤلاء النساء الثلاث، هذا إذا أدخلنا في الحساب السيدة الأستاذة. ومذ نجح السيد فون شتتنهايم في كسب ودّ أمي نجاحاً مذهلاً، بدأت أليزابيت تأتي لزيارتنا من وقت لآخر. وصارت أمي تُلمِّح فقط إلى أنها غير راغبة في رؤية السيدة يولاند. كانت هذه الأخيرة قد بدأت تبتعد عن أليزابيت بشكل

محسوس. وهذا الأمر أيضاً كان بفضل السيد فون شتتنهايم، وقد جعله يستحق رضاي. أخذت اعتاد على تصرفاته غير المرتقبة (والتي صارت، على كل حال، ترعبني بشكل أقل) وعلى صوته الأعلى بمرتين أو ثلاث ممّا تتطلبه المساحة التي يوجد فيها، وكأنه كان يجهل تماماً أن هناك غرفاً بأحجام مختلفة، أو أن هناك غرفاً خاصة بالنوم، وردهات في المحطة. كان يخطب بإسهاب في دار أمي وبصوت عالٍ جداً ومتعدد النبرات، بذلك الصوت الملهوج الذي يشبه صوت الناس البسطاء حين يتكلمون في الهاتف. وكان أيضاً يزعق حتى في الشارع. وبما أنه لم يكن يتلفظ إلاّ بعبارات جوفاء، فإنها والحالة هذه كانت تطن جوفاء على وجهين. تعجبت طويلاً من قدرة أمي على تحمل صوت السيد فون شتتنهايم وعلى إيجادها هذا الصوت «ساحراً»، وهي التي كانت تشعر بألم نفسي حقيقي لدى أدنى ضجة صاخبة، أو لدى سماع أيّ موسيقى في الشارع، وحتى لدى سماعها الحفلات الموسيقية في الهواء الطلق.

ذات مساء، مررت بالبيت في وقت غير معتاد. بحثت عن أمي لأتمنّى لها ليلة سعيدة. قالت لي الخادمة إنها موجودة في المكتبة. كان الباب المشترك مع الصالون مفتوحاً، فدخلت من دون أن أقرع. لم يبدُ أن أمي سمعت تحيتي. اعتقدت أنها نائمة فوق الكتاب. كان ظهرها ووجهها باتجاه النافذة. اقتربت منها. لم تكن نائمة بل تتصفح كتاباً لحظة اقتربت منها. رددّتُ: «مساء الخير يا أمي». ولكنها لم ترفع عينيها. لمستها فانتفضت.

ـ «ماذا؟ أنت؟ في هذا الوقت؟

ـ مررت بمنزلنا مروراً عابراً يا أمي. جئت لأفتش عن عنوان سيتاسين.

ـ «أخباره منقطعة منذ زمن طويل. أعتقد أنه توفي».

لكن الدكتور سيتاسين كان طبيباً شرعياً في مثل سني تقريباً. يبدو أن أمي لم تفهم جيداً ما كنت أقوله.

ـ «ولكني أتكلم عن سيتاسين»

ـ فهمت. أعتقد أنه توفي منذ سنتين. كان في الرابعة والعشرين من عمره».

قلت: «آه، توفي».

عرفت عندئذٍ أن أمي صارت ثقيلة السمع. وإذا كانت تملك القوة الغامضة لإخفاء عاهتها خلال الساعات التي كانت تتوقع قدومنا فيها، فهذا فقط بفضل نظام فائق العادة لم يُغرس في أذهاننا، نحن الشباب، منذ صغرنا. إذن، كانت تتحضر خلال فترات انتظارها الطويلة، للسماع. لا بدّ أنها عرفت أن العمر قد وجّه إليها إحدى ضرباته القاضية. فكّرتُ: «عمّا قريب ستصبح صمّاء تماماً، كآلتها البيانو، من دون أوتار!» أجل، عندما انتزعت الأوتار من البيانو على إثر نوبة من نوبات تشوش الدماغ، ربما شعرت منذ ذلك الحين بالطرش يهددّها، فخشيت بطريقة غامضة ألاّ يعود بإمكانها أن تميّز النغمات بدقّة. كانت هذه الضربة التي وجهتها الشيخوخة لأمي هي الضربة الأكثر إيلاماً، لأنّ أمي كانت إبنة حقيقية للموسيقى. بدت لي في هذه اللحظة مكلّلة بعظمة استثنائية. رأيتها تغيب في مجاهل عصر آخر، عصر النبالة البطولية الذي اختفى منذ زمن طويل. فالبطولة الحقة والنبل الحق هو أن يخفي المرء عاهاته وينفيها. ربّما لهذا السبب كانت أمي تقدّر صداقة السيد فون شتتنهايم، لأنها كانت

تستطيع أن تسمعه بشكل أفضل. كانت ممتنة له، ولم تكن تفاهاته تتعبها.

استأذنت منها ورحت أفتش في غرفتي عن عنوان سيتاسين.

ثم سألتها رافعاً صوتي: «هل يمكنني أن آتي في الساعة الثامنة يا أمي!»

يبدو أنني تكلّمت بصوت عالٍ جداً، لأنها سألتني:

-«منذ متى تصرخ هكذا؟ بالطبع يمكنك المجيء. لدينا فطائر بالكرز. ولكن مصنوعة بطحين القمح».

حاولت أن أدفع فكرة الفندق العائلي جانباً. ماذا، أن تدير فندقاً! أية فكرة تافهة، تافهة! كانت عاهتها تزيد أيضاً من وقارها. ربما لم يعد في إمكانها الآن سماع ارتطام عصاها بالأرضية. ولا حتى وقع خطواتها هي بالذات. وبدأت أفهم سبب معاملتها المتساهلة كثيراً مع خادمتنا السمينة الشقراء البليدة، وهي فتاة ساذجة من الضواحي تحدث جلبة كبيرة في البيت. أن يكون لأمي نزلاء! تصوّرت أن بيتنا سيصدح برنين الأجراس التي لا تحصى، والتي تثقب لي أذني منذ الآن، فيما أمي عاجزة عن الإحساس بكل هذه الوقاحة. كان عليَّ أن أسمع الأجراس نيابة عن اثنين، وأن أستاء منها نيابة عن إثنين. ولكن كيف الخلاص من هذه الورطة؟ فالسيد كينوير على حق، وصناعة الفنون التزيينية تلتهم الرهن تلو الرهن.

لم تكن أمي تحفل بهذا الأمر. وكان عليَّ وحدي أن أتحمل المسؤولية أنا أتحمل مسؤوليات! مستحيل. ليس لأنني جبان، بل لأنني عاجز تماماً. لم يكن الموت يخيفني، بل المكاتب وكتّاب العدل

وأصحاب المراكز. والحساب، لم أكن أتقنه بل أعرف فقط أن أقوم بعمليات الجمع عند الضرورة. أما عملية الضرب، فكانت تجعلني أشعر بالارتباك. أنا أتحمل مسؤوليات!

وبالرغم من كل شيء، فإن السيد فون شتتنهايم كان يعيش دون هم مثل عصفور طيرانه ثقيل، كانت جيوبه تظل دائماً مليئة بالمال. ولم يكن يستدين قطّ، بل على العكس، كان يدعو جميع أصدقائي على حسابه. لم نكن نحبه في الحقيقة، وكنّا، حين يعلن ظهوره فجأة في مقهانا، يتولاّنا الصمت جميعاً. وفوق ذلك، كان معتاداً على الظهور كلّ أسبوع برفقة امرأة جديدة. ويلتقط نساءه من هنا وهناك: راقصات، أمينات صندوق، خياطات، عارضات أزياء، طبّاخات. وكان يتجول في الأسواق ويشتري الثياب ويلعب التنس ويركب على الحصان في «براتر».

ذات مساء، حين كنت عائداً إلى البيت، التقيت به عند العتبة. كان يبدو مستعجلاً وكانت هناك سيارة في انتظاره. قال لي: «علي أن أذهب» ورمى نفسه في السيارة.

وجدت أليزابيت جالسة بالقرب من أمي. من الواضح أنها أتت برفقة السيد فون شتتنهايم. لكني بدأت أشم رائحة غريبة في منزلنا، رائحة عادية وغير مألوفة. لابدّ أن شيئاً ما، مفاجأة ما قد وقعت أثناء غيابي. فعند دخولي، كانت المرآتان تتحدثان فيما بينهما، ولكن ما أن أحسّتا بوجودي حتى بدأتا تتكلمان بلهجة مصطنعة أفهمتني في الحال أنهما تحيدان عن الموضوع.

قلت:

ـ «التقيت لتوي بالسيد فون شتتنهايم، عند الباب».

فأجابت أليزابيت: «نعم، لقد أتى برفقتي. وأمضى ربع ساعة معنا».

ثم أسرّت لي أمي: المسكين، يعاني من بعض المتاعب».

فسألت: «أهو في حاجة إلى المال؟»

فعقّبت أليزابيت قائلة: «هذا هو الأمر بالضبط. اليوم، حصلت مشادة في المحترف. ولكي أقول لك الحقيقة، طالبت يولاند بمبلغ من المال. وكان علينا أن نسلفها المبلغ لأنها المرة الأولى التي تطلب فيها مالاً. إنها في طريقها إلى الطلاق من زوجها. وكان السيد فون شتتنهايم، من جهته، بحاجة ماسة إلى هذا المبلغ. ولم يكن في استطاعة أبي أن يعطيه لأن عليه أن يقوم ببعض المدفوعات فاصطحبت شتتنهايم إلى عند حماتي وأسلفته المبلغ.

ـ نقداً؟

ـ شيكاً.

ـ كم تبلغ قيمته؟

ـ عشرة آلاف».

كنت أعرف ان أمي لم تعد تملك في بنك «إزوسي» إلاّ خمسين ألف كورين دون قيمة، لا بل إن قيمتها في انخفاض مستمر. «اليهودي» هو الذي أحاطني علماً بالأمر.

عندئذٍ، فعلت شيئاً لم أكن لأجرؤ في السابق على القيام به أخذت أذرع الدار جيئة وذهاباً، على مرأى من نظرات أمي القاسية والمذعورة. للمرة الأولى تجرأت على رفع صوتي في حضورها. لا بل صرخت وذهبت حتى حدود العنف. كان الحقد المتراكم طويلاً

ضد شتتنهايم وضد يولاند وحميي، أقوى مني. وكنت حاقداً أيضاً على نفسي لأني استسلمت للخداع. واختلط بكل ذلك شيء من التبرم بأمي وغيرتي من شتتنهايم. وللمرة الأولى تجرأت على استعمال كلمات نابية في حضور أمي وغير محلّل استعمالها إلاّ في المطعم العسكري.

زعقت: «بروسيّ قذر!»

وارتعبت من نفسي.

وأجزت لنفسي الكثير. حظّرت على أمي أن توقع شيكات جديدة من دون إذن مني. وحظّرت أيضاً على أليزابيت أن تأتي لأمي بمقترضين جدد.

وقلت بالحرف الواحد: «مقترضين لا نعرف أصلهم ولا فصلهم».

ربما أنني كنت أعرف نفسي جيداً، وأعرف أنني غير قادر على التعبير عن ما يجول في خاطري وعن رعبي من الناس والأشياء وعن رأيي الصريح بهم إلاّ مرةً كل ثلاث سنوات، تعمّدت إذاً أن أجعل غضبي أكثر سخطاً بعد. فقلت زاعقاً:

«ـ ولا أريد أن أرى بعد الآن السيد الأستاذة! ولا أريد أن أسمع كلمة واحدة عن الفنون التزيينية. وحتى يعود كل شيء إلى نصابه ستقيمين هنا يا أليزابيت! عندي!»

كانت أمي تحدق إليَّ بعينيها الكبيرتين الحزينتين. من الواضح أو انفجار غضبي كان يثير فيها الرعب واللذة في آن.

ثم قالت: «كان أبوه أحياناً مثل عاصفة. كان عندما يغضب يبدأ بتكسير أكداس من الصحون! بهذا العلوّ!»

وباعدت ذراعيها لتعطينا فكرة عن علوّ كومة الصحون التي كان يكسرها أبي. وتابعت:

ـ «كانت نوبة الغضب تعتريه تقريباً كل ستة أشهر وكأنها مرض. وخصوصاً في الصيف، حين نجهّز حقائبنا للذهاب إلى «إيشل». لم يكن في استطاعته احتمال هذا الأمر.» ثم أضافت: «ولا الصغير». مع أنّها قلّما كانت تراني في الفترة التي تجهز فيها الحقائب عادة.

كنت راغباً في هذه اللحظة في أن آخذها بين ذراعي. أمي العجوز المسكينة التي يداهمها الطرش ببطء. ها إنها لم تعد تسمع جلبات الحاضر. بل فقط أصوات الماضي. وعلى سبيل المثال، ضجة الصحون التي كان أبي يكسرها أثناء غضبه. ها إن ذاكرتها بدأت تتقهقر، كما يحدث للعجائز الذين يدركهم الصمم. وكل هذا جيد. كم أن الطبيعة رحيمة! فالعاهات التي تخبئها للشيخوخة هي في الوقت نفسه، نعمة. عندما نشيخ، تقدم لنا السنوات أعطية النسيان والصمم والعمى، وتشوّش قليلاً دماغنا عشية الموت. كم هي منعشة ومريحة الظلال التي تسبق الموت!

ـ ٢٩ ـ

كان حموي، كمثل أناس عديدين من صنفه، قد راهن على سقوط الفرنك الفرنسي. لكن هذه المراهنة لم تأت بنتائج. فلم يتبقَّ له والحالة هذه من جميع «الأسهم التي في جعبته» ولا سهم واحد. من جهة ثانية، أفلست محترفات يولاند هي أيضاً، وبقي الأثاث الأصفر كله دون تأثير، ومشاريع السيدة يولاند زاتماري دون فائدة، والرسوم الأولية العجيبة لزوجتي دون قيمة.

لكن عمّي المتوثب دائماً للعمل، أهمل تماماً أمر الفنون التزيينية، وأخذ يهتم فجأة بالجرائد، «بالشأن الصحافي «كما بدأوا يقولون في النمسا على غرار الألمان. تحمَّس حموي لجريدة «المونتاغس زاينتونغ». وأراد أن يدخلني في المشروع معه. أما نحن، فلم تبق لنا الرهونات إلاّ ثلث بيتنا. وعندما أقرَّ نظام العملة الجديد، اكتشفنا أن وديعة أمي في بنك «افروسي» صارت قيمتها تبلغ بالكاد بضعة آلاف تعيسة من الشيلينغات.

أول شخص اختفى من أفقنا، كان السيد فون شتتنهايم. «لاذ

بالفرار»، حتى نستعمل إحدى العبارات التي كان يحبّذها. ولم يبعث برسالة وداع حتى، بل اكتفى بالإبراق: «موعد هام. سأعود». أما مدام يولاند زاتماري فكانت آخر المغادرين. فها قَدْ مضت أسابيع على تأجير المحترف الشهير بأثاثه الأصفر إلى شركة «عراف» التي كانت تتاجر بالسجاد الشرقي. وها إن أسابيع قد مضت وحموي يستعد لبيع شقته في فيينا. كان نصف العالم في طريقه لأن يتغير، لكن السيدة الأستاذة لم تترك من غرفتها في فندق «ريجينا»، يبدو أنها كانت مصرّة على عدم تغيير شيء من عاداتها وأعرافها وتصرفاتها. كانت تواصل العمل على «مشاريعها». كان الحكم بطلاقها من زوجها قد صدر، وصار زوجها يدفع لها بموجبه عائداً شهرياً. كانت تتحدث كثيراً عن سفرها إلى سان فرانسيسكو، لأن الأراضي البعيدة تشدها، وأوروبا في رأيها ميؤوس من شفائها. ومع ذلك، لم تسافر. كانت تقيم لاتبرح. كانت تظهر في كوابيس وكأنها مخلوق جهنمي معدّ لتدمير حياة أليزابيت وحياتي أنا بالذات. تُرى لماذا كانت تصر على البقاء؟ وعلى العمل في مشاريعها؟ ولماذا كانت أليزابيت تذهب يومياً لزيارتها في الفندق؟ هل كان الأمر يتعلق فقط بإحضار هذه المشاريع غير المجدية والتي لن تبصر النور أبداً؟

ذات يوم أسرّت لي زوجتي.

- «أنا واقعة في الفخ. أحبك. ولكن هذه المخلوقة لا تريد أن تتركني لا أعرف ما الذي يدعوها إلى البقاء هنا.

أجبتها: «تعالي لنبحث الموضوع مع أمي».

رجعنا إلى البيت، بيتنا.

كان الوقت متأخراً، لكن أمي لا تزال ساهرة.

قلت لها:

ـ أمي، لقد جئت بأليزابيت.

ـ حسناً، ما عليها سوى البقاء هنا.

كانت هذه ليلتي الأولى مع زوجتي، في غرفتي، تحت سقفي. كان الأمر وكأن المنزل الأبوي يضيف إلى حبنا ويباركه. أبداً سأحتفظ بذكرى هذه الليلة، ليلة زواجنا الحقيقية الوحيدة في حياتي. تمتمت أليزابيت وهي شبه نائمة: «أريد طفلاً منك». حسبت هذه الكلمات تعبيراً متودّداً عادياً. ولكن في الصباح عندما استيقظت ـ استيقظت هي الأولى ـ طوّقت عنقي وصرخت بلهجة باردة، باردة شبه جارحة:

ـ «أنا زوجتك. أريد أن أنجب منك طفلاً. أريد أن أترك يولاند فهي تثير فيّ القرف. أريد طفلاً.

ومنذ ذلك الصباح، سكنت أليزابيت معنا. وصلتها رسالة وداع وجيزة جداً من السيدة الأستاذة. لن تسافر إلى سان فرانسيسكو كما لوّحت مهدّدة، بل إلى بودابست حيث ستكون هناك في مكانها المناسب. من وقت لآخر. كانت أمي تسأل:

ـ «أين تقيم حالياً السيدة كشكمت.

ـ في بودابست يا أمي.

ـ آه، سينتهي الأمر بها إلى العودة إذن».

ـ وكان على هذه النبوءة أن تتحقق.

ـ في الوقت الحاضر، كنا نسكن جميعاً في البيت نفسه، وكانت

الأمور تسير بشكل جيد تقريباً. كنت راضياً عن أمي لأنها تخلّت عن أسلوبها المعادي في الكلام. فهي لم تعد تقول: «اليهودي»، بل السيد كينوير، كما في السابق. أما هو فكان لا يزال مصرّاً على فكرته: يجب فتح فندق عائلي. كان ينتمي إلى فئة الناس الذين يمكن وصفهم بالعمليين، والذين لا يمكنهم أن يتخلّوا عن فكرة منتجة، حتى ولو كان الأمر يتعلق بأناس ليسوا مؤهلين لتنفيذها. كان «واقعياً»، وهذا يعني أنه كان يبدي عناداً لا يليق إلاّ بالأشخاص غريبي الأطوار. لم يعد يرى نصب عينيه إلاّ منفعة مشروعه وحدها. وكان يعيش مقتنعاً بأن على جميع الناس، أيّاً كانوا، أن يقوموا بتنفيذ مشاريع مفيدة. كان الأمر يشبه بالنسبة لي نجاراً يقوم بصناعة أثاث مريح من دون أن يأخذ قياس البيوت والأبواب والغرف. وفي نهاية الأمر، فتحنا فندقاً. وباشر السيد كنوير مهامه للحصول على الرخصة بحماسة مخترع شغوف يحاول أن يستصدر براءة لأحد اختراعاته. كان يقول لي:

ـ «اتشغل بالك وأنت المحاط بشلّة من الأصدقاء! لديك اثنتا عشرة غرفة جاهزة للإيجار. يبقى هناك غرفتان للسيدة أمك وأربع غرف لك ولزوجتك. «يلزمكم فقط خادمة وهاتف وستة أسرّة وأجراس».

وقبل أن يتسنّى لنا الوقت لنفكر في الأمر، كان قد تدبر لنا الخادمة والهاتف والأسرّة وعمال الكهرباء. وجب الآن تدبر الزبائن. شوجنيسكي، وشتجكال، وهالاز، وغرونبرغ، ودووراك، وزيكينيي، وهالرسبرغ، وليختنتال، وستروههفر، كل هؤلاء فقدوا بيوتهم. فاقتدتهم إلى نزلنا.

كان البارون هالرسبرغ الزبون الوحيد الذي يدفع مسبقاً. كان

ابن تاجر كبير للسكر في مورافيا، وكان يظهر ترفاً غريباً تماماً عن جماعتنا ألا وهو الدّقة. لم يكن يستدين ولا يديِّن. كان يبقى دائماً نظيفاً، ثيابه مكوية، حسن الهندام. كان يعيش بيننا ونحن متغاضون عن انعدام حسّ الفكاهة عنده. أحياناً كان يقول: «مصنعنا يمر بفترات عصيبة. وفي الحال، كان يلتقط ورقة صغيرة وقلماً لكي يجسِّد لنا بالأرقام المتاعب التي يعانيها أبوه، منتظراً منّا أن نستعرض هيئات كئيبة متعاطفة معه. فكنّا نمنحه هذه المتعة بطيبة خاطر. ثم كان يستنتج كعادته قائلاً: «يجب أن أقلّل من مصاريفي».

وكان يخفف مصاريفه إذاً في بيتنا دافعاً فوراً ومسبقاً كل ما يتوجب عليه. فالديون والفواتير كانت ترعبه لأنها «تتراكم» حسب قوله. كان يحتقرنا إذا سمحنا لديوننا أن تتراكم، ويحسدنا في الوقت نفسه على هذه السهولة في أن نجعلها تتراكم. كان شوجنيسكي الأكثر تمرساً بيننا في هذا المجال، وبهذا يثير إلى أقصى حدّ حَسَد هالرسبرغ.

وخلافاً لما توقعت تماماً، كان نزلنا يدخل البهجة إلى قلب أمي. كانت أمي تراقب ذهاب ومجيء عمال الكهرباء ببذلاتهم الزرقاء، وتسمع صوت الأجراس الرخيم وأصداء الأصوات الفرحة. كان واضحاً أن ذلك كله يسلّيها. ربّما كانت تشعر أنها تستعيد حياتها منذ البداية، وأنها تعيد صياغتها على أسس جديدة. كانت تستند إلى عصاها التي تدق الأرض بفرح، فتزور بخطى رشيقة الغرف، وتصعد الطوابق الثلاثة وتنزلها، وصوتها يدوي عالياً قوياً. في حياتي لم أرها هكذا.

في المساء، كانت أحياناً تنام في كنبتها وعصاها عند قدميها مثل كلب أمين.

لكن أمور النزل كانت «تسير جيداً»، كما كان يقول السيد كينوير.

— ٣٠ —

الآن، كنت أنام تحت سقفنا، إلى جوار زوجتي. وسرعان ما تأكّد لي أنها كانت تميل ميلاً شديداً لكل ما يسمى «بأعمال التنظيف»، وحب النظام والنظافة، مثل عدد كبير من النساء على كل حال. كان هذا الميل المحتوم مصحوباً بالغيرة. عرفت عندئذ لماذا الزوجات يفضلن بيوتهن وشققهن على أزواجهن. لأن هذه هي طريقة زوجاتنا في تهيئة عش الأولاد. إذ يباشرن، وبمكْر لا واعٍ، بإدخال الرجل في شبكة معقدة من الواجبات الصغيرة اليومية، التي لن يستطيع أبداً التخلص منها. كنت أنام إذا في بيتنا، إلى جانب آليزابيت. كان هذا بيتنا، وكانت هذه زوجتي.

في الحقيقة، يصبح السرير الزوجي بيتاً خفياً وسط البيت المرئي المفتوح. والمرأة التي تنتظرنا هناك على السرير، نمنحها حبنا فقط وببساطة لأنها حاضرة، هنا. إنها هنا، حاضرة طيلة الليل وأيّاً تكن

الساعة التي نرجع فيها. ولهذا السبب بالذات نحبها. لأننا نحب من هو ثابت، ونحب على وجه أخص من ينتظرنا ويريد أن يثبت أنه صبور.

كانت لدينا الآن في بيتنا عشرة هواتف وحوالي دزينة من الأجراس. كانت نصف دزينة من العمال المرتدين بذلات زرقاء يعملون من أجل تجهيز الماء. كان السيد كينوير يدفع المال مسبقاً لتصليح بيتنا. وهكذا، فإن أمي لم تعد ترى فيه «اليهودي» البسيط، بل ارتقى في نظرها إلى مرتبة «الرجل الطيّب».

عند حلول الخريف، تلقينا زيارة غير متوقعة: زيارة قريبي جوزف برانكو. دخل إلى بيتنا ذات صباح مشابه تماماً للصباح الذي أتى فيه للمرة الأولى. وكأن شيئاً لم يجرِ بين الزيارتين. كأننا لم نقاسِ من ويلات الحرب العالمية، ولم نقع في الأسر مع مانيس ريزيجر، في قبضة بارانوفيتش في البداية ومن ثم في معسكر الأسرى. أو كأنَّ بلدنا لم يتفكك. هكذا أعلن قريبي بائع الكستناء ظهوره. كان قد أتى إلى فيينا مع أكياسه وأسود شَعْره وشاربيه وأسمر وجهه المذهّب كالشمس، ليبيع الكستناء المشوي، كما في كل سنة، وكأن شيئاً لم يتغير. أخبرني أن ابنه في صحة جيدة ويذهب إلى مدرسة «دوبروفنيك». وأن عائلة أخته في حالة جيدة. لحسن الحظ، صهره لم يقتل في الحرب. وقد رزقا ولدين صبيين توأمين واطلقا عليهما إسم برانكو زيادة في الاختصار.

سألت:

وما هي اخبار مانيس ريزيجر؟

آه! هذه مسألة أخرى! إنه ينتظر هناك في الأسفل. لم يشأ

الصعود معي.

فهرعت لإحضاره. لم أعرفه في الحال. كانت لحيته رمادية ومنفوشة. وكان يشبه الشتاء كما يصورونه في الكتب الخرافية القديمة. سألته لماذا لم يصعد في الحال. فأجابني.

ـ «منذ سنة وأنا راغب في رؤيتك يا سيدي الضابط. رجعت إلى «زلوتوغرود»، في بولونيا على أمل أن أعود الحوذي مانيس ريزيجر. ولكن ما هو العالم، ما هي مدينة صغيرة، وما هو حوذي في نظر الله؟ لقد نشر الله الفوضى في العالم فمحى «زلوتوغرود». الآن، أزهار الزعفران والبلّيس تنبت فوق الأماكن القديمة لبيوتنا. وزوجتي أيضاً توفيت. مزّقتها قذيفة كما حصل لنساء كثيرات. فرجعت إلى فيينا. فهنا على الأقل أرى ولدي».

آه أجل! ابنه إفراييم! تذكرته الآن، الإبن الصغير الضال، وكيف أدخله شوجنيسكي إلى المعهد الموسيقي. فسألت مانيس ريزيجر:

ـ «ما هي أخباره؟»

أجابني الحوذي العجوز:

ـ «إبني إفراييم عبقري. تخلّ عن دراسة الموسيقى زاعماً أنه لم يعد بحاجة إليها. أصبح الآن شيوعياً ومحرراً في جريدة «العلم الأحمر»(*) ويكتب مقالات مذهلة. أنظر».

ذهبنا إلى غرفتي. كان الحوذي يحمل في جيبه جميع المقالات التي كتبها ابنه العبقري. طلب مني أن أقرأها. فقرأتها بصوت عالٍ

(*) العلم الأحمر: جريدة شيوعية.

المقال تلو الآخر. ثم جاءت أليزابيت لموافاتنا. وبعد قليل، تجمع كل أصدقائي كلهم في غرفتي ككل يوم من أجل تناول القهوة بعد الظهر. ثم أسرّ لي مانيس ريزيجر:

- «هل تعرف، ليس لي الحق في البقاء هنا في فيينّا. هناك أمر بإبعادي».

بدت لحيته مسترسلة بكبرياء ووجهه مشرقاً.

- «ولكن ابني اعطاني جواز مرور مزوّر. أنظر».

ومدّ لي جواز مروره النمساوي المزوّر. مسَّد لحيته ناظراً بفخر وهو يقول:

- «غير شرعي!»

ثم تابع: «إفراييم لم يعد بحاجة إلى الموسيقى. فغداً عندما تتحقق الثورة، سيصبح وزيراً»

كان مقتنعاً بتحقق الثورة العالمية بالطريقة التي ينتظر فيها أيام الآحاد المكتوبة بخط أحمر في الروزنامة.

قال لي قريبي جوزف برانكو: «موسم الكستناء لم يكن ناجحاً. هناك أكوام من الكستناء المتعفن. تجارة التفاح المطهو مزدهرة أكثر».

سألت: على فكرة، كيف نجوتما؟

فأجابني مانيس ريزيجر:

«بعون الله. التقينا بعريف روسي فألقاه جوزف برانكو أرضاً وهشّم جمجمته بحجر. أنا أخذت بندقيته ولبست بذلته ثم اقتدت

جوزف برانكو حتى «شميرنيكا». وهناك سلَّم جوزف برانكو نفسه في الحال لجنود الاحتلال. وجرى ضربه أيضاً. أما أنا فنزلت في ضيافة رجل يهودي طيّب، في ثياب مدنية. كان لدى برانكو العنوان. وعندما انتهت الحرب، أتى لرؤيتي».

هتف شوجنيسكي وهو يدخل إلى الغرفة: «جيش رائع! ما هي أخبار إبنك الموسيقي».

- «لم يعد بحاجة إلى الموسيقى. انه يحضِّر الآن للثورة».

فقال شوجنيسكي: «لدينا عدد لا يستهان به من أمثالهم. ولا يتبادرن إلى ذهنك أني أعارض ذلك بأي شكل! لكنّ هناك عيباً في ثورات اليوم وهو أنها تخفق. كان من الأفضل لإبنك لو بقي مهتماً بموسيقاه»،

ثم قال جوزف برانكو: «الآن، بات متوجباً علينا أن نخصص جواز سفر لكل بلد في مملكتنا. لم أر شيئاً مماثلاً في حياتي. كنت أبيع الكستناء كل سنة وفي كل مكان، في بوهيميا وموارفيا وسيليزيا وغاليسيا... (وأخذ يعد بلدان المملكة التي فقدناها). أما الآن فصار كل شيء ممنوعاً. تصوّر في حوزتي جواز سفر! جواز سفر حسب الأصول ومرفقاً بصورتي!

أخرجه من جيبه. ثم شهره عالياً ليراه الجميع فبادر شوجنيسكي إلى الكلام:

- «أترون، أمامنا الآن مجرد بائع كستناء بسيط. لكن كم أن هذه المهنة ترمز إلى ملكيتنا القديمة! كان هذا الرجل يمارس تجارته أينما كان، في نصف أوروبا. وكنا نستطيع في كل مكان أن نأكل

كستناءه المشوي. كانت تلك النمسا، وكان فرنسوا ـ جوزف حاكماً في كل مكان. أما الآن، فلا كستناء من دون جواز سفر. أيّ عالم هذا! إني لا أبالي بنزلك. سأذهب إلى مصح شينهوف. يجب أن أرى أخي!»

ثم وصلت أمي. سمعنا ارتطام عصاها القوي على الدرج. كانت تجد لائقاً أن تأتي لزيارتي في غرفتي كل يوم في الساعة الخامسة تماماً من بعد الظهر. حتى الآن، لم يسدّد أيّ من النزلاء حسابه. ذات يوم قام شوجنيسكي وشتيكين بمحاولة خجولة للحصول على بيان الحساب. لكن أمي أجابتهما أن هذا المسألة تخص البوّاب. كان هذا غير صحيح، على أية حال، لأن أليزابيت هي التي أخذت على عاتقها هذا الأمر. كانت تقبض المال من هذا أومن ذاك كيفما اتفق لتقوم بتسديد نفقاتنا. كانت الأجراس تطن طيلة النهار، والخادمتان تركضان الدرج بلا انقطاع. وهكذا غدونا مشهورين في الحيّ كله.

كانت أمي سعيدة بالأصوات التي لا يزال في الإمكان أن تسمعها، وبجلبة النزلاء، وبالشهرة التي يحظى بها فندقنا. لم تكن هذه السيدة العجوز المسكينة تفكر بأن هذا البيت لم يعد ينتمي إليها. في ذلك اليوم، تعرّفت إلى جوزف برانكو ورحّبت أيضاً بصديقه مانيس ريزيجر. بشكل عام، مذ فتحنا النزل، كانت أمي تتحول إلى إنسانة محبّة للناس. كانت سترحب، أيضاً، بأشخاص غرباء تماماً لو استدعى الأمر. كان الصمم يتملّك فيها أكثر فأكثر، والعاهة تدمر عقلها ببطء، ليس لأن العاهة كانت تعذبها، بل لأنها كانت تصطنع عدم الإنزعاج منها وترفض الاعتراف بوجودها.

ـ ٣١ ـ

في السنة التالية، في شهر نيسان، أنجبت أليزابيت ولداً. لم تنجبه في عيادة بل في البيت لأن أمي طلبت ذلك وأمرت به.

هذا الطفل، كنت أنا من أوجده. أردته وأمرت به. وأليزابيت رغبت فيه. كنت لا أزال فريسة الغيرة، فتصورت أن بإمكاني أن أطرد ذكرى السيدة يولاند زاتماري من ذهن زوجتي. إن أنا منحتها طفلاً، فهذا سيكون دليلاً محسوساً على تفوقي. كان صحيحاً أني بهذا التصرف، جعلت أليزابيت تنسى السيدة الأستاذة، ولكني وجدت نفسي أنا أيضاً «تروتّا العزيز» شبه منسي وشبه ممحو.

لم أعد تروتا بل صرت أبو إبني. أسميته فرنسوا ـ جوزف ـ أوجين.

ويمكنني أن أؤكد أنني صرت إنساناً مختلفاً ابتداءً من اللحظة التي أبصر فيها إبني النور. كان شوجنيسكي وجميع الأصدقاء المقيمين في نزلنا ينتظرون في غرفتي في الدور السفلي، وقد أخذهم

الانفعال، وكأنهم هم الذين كانوا في طريقهم لأن يصيروا آباء. ولد الطفل في الرابعة صباحاً. أمي هي التي زفت لنا النبأ.

إبني: مخلوق صغير بشع أحمر كله. رأسه ضخم جداً وأطرافه مثل الزعانف. وكان هذا المخلوق يزعق دون توقف. ولكني، وفي الحال، منحت قطعة الرجل الصغيرة هذه المولودة مني، حبي. وفي الوقت نفسه، وجدت نفسي تحت تأثير الكبرياء السخيفة لكوني أنجبت صبياً وليس بنتاً. ولكي أتأكد من ذلك، انحنيت لأرى عضوه الصغير الشبيه بفاصلة حمراء. لا، ليس هناك ما يدعو إلى الشك: إنه إبني وأنا أبوه.

مذ وُجد العالم وهناك ملايين لا بل مليارات الآباء. وأنا لست سوى أب من بين مليارات الآباء. ومع ذلك، حين أخذت إبني بين ذراعي، شعرت بشيء يشبه انعكاساً شاحباً للغبطة العظمى، غبطة الخالق في اليوم السادس من التكوين عندما أنهى عمله غير الكامل مع ذلك. حملت بين يديّ الشيء البشع الأحمر المستهل، فأحسست بوضوح بأن هناك تغييراً يعتمل في كياني. فمهما كان هذا الشيء بشعاً أحمر، كانت تصدر عنه مع ذلك قوة لا توصف، وأكثر من ذلك، كنت كأني خزَّنت في هذا الجسد الصغير المسكين الرخو كل قوتي الذاتية، كأني أمسك في يدي نَفْسي، أمسك في يدي أفضل ما فيَّ.

غريزة الأمومة عند النساء لا تعرف حدوداً. استقبلت أمي الحفيد الذي أبصر النور، وكأنها هي التي حملته في بطنها. وأنعمت على اليزابيت ببقية الحنان المتبقية لها. وزوجتي لم تصبح ابنتها إلاّ لحظة أنجبت ولداً مني. والحق يقال، زوجتي لم تكن بالنسبة لأمي إلاّ أم حفيدها.

أستطيع القول إنها انتظرت ولادة هذا الحفيد لتتأهب للموت. فأخذت تنطفىء شيئاً فشيئاً وبالإيقاع البطيء نفسه الذي عاشت فيه. ذات يوم، لم تنزل كعادتها إلى دورنا الأرضي، بعد الظهر. جاءت إحدى خادمتيناتعلمنا بأن أمي تعاني من الصداع. ولكن هذا الصداع لم يكن صداعاً عادياً. كانت أمي مصابة بجلطة ونصفها الأيمن مشلولاً.

عاشت أمي على هذه الحالة عدة سنوات. كانت حملاً أحببناه كلنا ودلّلناه بتفانٍ كلنا. كل صباح، كنت أفرح بأن أجدها على قيد الحياة. كانت امرأة عجوزاً وحياتها باتت متعلقة بأشياء قليلة جداً.

كل يوم، كنا نأتي لها بإبني، حفيدها. لم تكن قادرة إلاَ على تمتمة كلمة واحدة: صغير. كانت مشلولة من الجهة اليمنى...

ـ ٣٢ ـ

بقيت أمي بالنسبة لي حِملاً عزيزاً دلَّلته بتفانٍ. لم يسبق لي طيلة حياتي أن شعرت بأني أميل للقيام بمهنة ما. ولكن، ها قد وجدت أخيراً مهنتين وهما مهنة الإبن ومهنة الأب. كنت أبقى جالساً لساعات قرب المرأة المريضة. وجب عليَّ الاستعانة بممرّض لأن

المرأة العجوز كانت ثقيلة، ويُفترض حملها كل يوم إلى الغرفة وإلى الطاولة. كان مجرد أن نجعلها تجلس يمثل بالنسبة لنا عملاً منهكاً. أحياناً، كانت ترغب في أن نجرّ عربتها الصغيرة بين الغرف، وتريد أن تسمع وترى. كان يبدو لها أنها مذ صارت مريضة، قد بدأت تهمل أشياء كثيرة، تهمل كل شيء. كانت عينها اليمنى شبه معمضة. وحين تريد فتح فمها، كانت تبدو وكأن مسماراً حديدياً قد علِّق بنصف شفتها العليا. لم يعد في إمكانها إلاّ التلفظ بكلمات منعزلة وأسماء في غالبيتها. كانت تداري بحرص كبير على المفردات التي لا تزال في حوزتها.

كنت أترك أمي لأوافي إبني في غرفته. أخذت اليزابيت، الأم المخلصة في الأشهر الأولى، تبتعد شيئاً فشيئاً عن ابنها. أسميته فرنسوا ـ جوزف ـ أوجين. كانت تناديه جيني. بدأت تترك المنزل باستمرار ودون سبب. لم أكن أعرف أين تذهب ولم أكن أسألها. «ذهبت! فليكن! فلتذهب إذا كان هذا يرضيها!» ورحت أكتشف لذة أكبر في البقاء وحيداً مع ابني. كنت أهتف له: «جيني» فيشرق وجهه الجميل الأسمر المستدير. صارت الغيرة تتآكلني. أن أكون السبب في وجود هذا الصبي، شيء لا يكفيني. كنت أود لو أني حملته في بطني وقمت أنا بإنجابه. كان يقفز في الغرفة نشيطاً مثل نمس. أصبح رجلاً ولكنه لا يزال في الوقت نفسه حيواناً صغيراً. وهو أيضاً ملاك. كنت أراه يكبر يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة. كان شعره البني يصير كثيفاً وعيناه الكبيرتان الرماديتان الفاتحتان تزدادان لمعاناً، وأهدابهما تصير أكثر كثافة وطولاً. كانت اليدان أيضاً تكتسبان شكلهما الخاص المميّز، والأصابع تصير رشيقة قوية. كانت الشفتان تتحركان بحماس متزايد واللسان الصغير يحاول

الكلام بسرعة متزايدة وبوضوح متزايد. رأيت أسنانه الأولى تنبت وسمعت ضحكته الأولى. وعلى مرأى مني، قام بخطواته الأولى نحو النافذة، باتجاه الشمس، باندفاع مفاجىء وكأن إلهاماً مفاجئاً حثّه، أو كأنه يسير طوع فكرة لا طوع غريزة حسية. كان الله بنفسه يلقّنه قدرة الإنسان على المشي وقوفاً على قدميه. وها إن إبني يمشي واقفاً على قدميه.

بقيت لوقت طويل أجهل أين كانت أليزابيت تذهب لقضاء ساعات وأحياناً نهارات بأكملها. كانت تتذرع بصديقة أو خياطة أو نادٍ للعب البريدج. كان نزلاؤنا يدفعون قليلاً ونادراً، باستثناء هالرسبرغ. كان شوجنيسكي، حين يتلقى صدفة أموالاً من بولونيا، يدفع في الحال وعن مستأجرين أو ثلاثة. كنا نتمتع في الحيّ بشهرة كبيرة. أنا، لم أكن أفهم شيئاً في الحسابات. وكانت أليزابيت تزعم بأنها تمسك بزمام الأمور المالية. لكن، ذات يوم في غيابها، جاء إليَّ اللحّام والخباز والسمان ومموّنون آخرون، ليقدموا لي فواتير الحساب لم أكن أملك في جيبي سوى خرجيتي. كانت زوجتي قبل خروجها من البيت قد اعتادت على أن تترك لنا بعض المال. وكانت أحياناً تبقى أياماً عديدة غائبة عن البيت. أما أنا فكنت أذهب إلى مقهى «ويمرل» برفقة بعض الأصدقاء. كان شوجنيسكي يعتبر أن قراءة الجرائد والتعليق على الأحداث هما من واجباته اليومية، كان يذهب كلَّ أحد لزيارة أخيه في مصح شتينهوف، ويحدّث أخاه في السياسة، ومن ثم يروي لنا تفاصيل زياراته:

- «على صعيد الأمور الشخصية، يمكن القول إن دماغ أخي المسكين متعطل كلياً. أما فيما يتعلق بالأمور العامة، فمن المستحيل أن نجد من يضاهيه ذكاء. والدليل على ذلك، ما قاله لي اليوم:

«النمسا لم تعد دولة أو وطناً أو أمة بل صارت طائفة. فرجال الدين والأكليريكيون الأغبياء الذين يحكموننا الآن يحاولون أن يجعلوا منا أمة على حدّ قولهم. فيما نحن نمثّل أمة عظمى، الأمة العظمى الوحيدة التي قُدِّر لها أن توجد في هذا العالم». ثم تابع قائلاً وهو يضع يده على كتفي: «يا أخي، اسمعهم يقولون إننا بولونيون. وإننا كنّا منذ الأزل، فلماذا لا نستعيد هويتنا؟ وإننا أيضاً نمساويون فلماذا لا نستقل؟ هناك غباء يلازم الإيديولوجيين. فالديمقراطيون الاجتماعيون أعلنوا على سبيل المثال أن النمسا جزء لا يتجزأ من الجمهورية الألمانية. على أية حال، هم الذين اخترعوا الفكرة المقرفة لوجود القوميات. وها هم الكاثوليك الأغبياء في جبال الألب يحذون حذو الديمقراطيين الاجتماعيين. الغباء يعشش في قمم الجبال. أنا، جوزف شوجنيسكي، أقول ذلك»، ثم أضاف الكونت: «أفتصدقون أن هذا الرجل مخبول؟ أنا متأكد أنه ليس مجنوناً، فلولا انهيار الملكية لبقي حتماً في كامل قواه العقلية».

بعد أحاديث مماثلة، كنا نلزم الصمت. ويخيِّم سكون ثقيل واجم فوق طاولتنا. سكون لا يصدر عنّا بل يهبط علينا من فوق. لم نكن نبكي على وطننا المفقود وإنما نصمت لفقدانه. وأحياناً، ومن دون أن نخطط لذلك، كنا نبدأ فجأة بإنشاد أغانٍ عسكرية قديمة. كنا أحياء، حاضرين جسدياً ولكن موتى في الحقيقة.

ذات يوم، رافقت شوجنيسكي في زيارته الأسبوعية لأخيه في شتينهوف. كان المريض يتنزه في الفناء. كان يقيم في الجناح الخاص للمصح مع أنه لم يُبدِ أيّ ميل للجنون العنيف. لم يتعرف إلى أخيه. ولكن، عندما قلت له أنني من آل تروتا، أخذ يستفسر في الحال.

قال لي: «تروتّا»، رأيت أباه المحافظ العجوز تروتا منذ ثمانية

أيام. صديقي الضابط قتل في كراسنه ـ باسك. أحبكم كلكم. أحب كل أفراد عائلة تروتّا».

ثم عانقني وقال:

«بيتي يدعى شتينهوف. وهو من الآن فصاعداً، ومذ سكنت هنا صار عاصمة النمسا. وأنا حامي التاج الأمبراطوري. كان عمي ليدوتشوسكي يقول لي دائماً «سيصير رجلاً عظيماً، جوزف الصغير هذا!» وها قد أصبحت رجلاً عظيماً. كان على حق».

ثم أخذ شوجنيسكي يهذي. من حين لآخر كان يقول: «أحيك المملكة». وعندما هممت بالإنصراف، قال لي:

ـ «لم تشرفني بالتعرف إليك.

ـ أدعى تروتا.

ـ تروتا، كان بطل سولفيرنيو. وقد أنقذ حياة الأمبراطور فرنسوا ـ جوزف. تروتا هذا مات من زمان. يبدو لي جيداً انك مخادع.

وفي ذلك اليوم بالذات، عرفت سبب غيبات زوجتي الطويلة عن المنزل، وعرفت ما الذي يدعوها لترك طفلها وأمي المشلولة المسكينة حين عدت إلى البيت، وجدت الشخصين الوحيدين اللذين أشعر حيالهما بحقد حقيقي ألا وهما السيدة يولاند زاتماري والسيد فون شتتنهايم.

اتضح لي أنهما رجعا إلى فيينا منذ أسابيع عديدة. وأنهما تركا صناعة الفنون التزيينية ويهتمان الآن كلياً بالسينما.

قال السيد فون شتتنهايم: «كيف، ألا تعرف الكسندر رابينوفيتش؟ ولكنه أسّس شركة في فيينا».

دائماً شركات! واتضح لي أيضاً أن أليزابيت ترفض بشكل قاطع أن تبقى أمّاً، وتطمح بأي ثمن لأن تصير نجمة. كان صوت السينما يناديها، دعوة السينما.

اختفت إذا ذات يوم تاركة لي هذه الرسالة:

«زوجي العزيز،

أمك تكرهني وأنت لا تحبني. أشعر أن هناك شيئاً يناديني. سأرحل مع يولاند وشتتنهايم. سامحني. فنداء الفن لا يقاوم.»

أليزابيت.

أطلعت أمي على الرسالة فقرأتها مرتين على التوالي: ثم قالت لي وهي تمسك رأسي بيدها اليسرى التي لا تزال سليمة:

- «صغـ... صغـ... صغيري، صغيري!»

وكأنها تهنئني وتندب حظي في آن.

من يدري كم من الأشياء الهامة كانت ستقولها لي لولا شللها.

لم تعد لولدي أم. رحلت أم ولدي لتمارس نشاطها السينمائي في هوليوود! وكانت جدة ولدي معاقة مسكينة.

توفيت في شباط.

ـ ٣٣ ـ

ماتت في أيام شباط الأولى. انطفأت كما عاشت: بنبل وبصمت. قالت للكاهن الذي أتى ليمشحها:

ـ «أسرع يا أبتِ. فالله ليس لديه وقت كافٍ كما تعتقد الكنيسة أحياناً».

لم يطل الكاهن المقام. ثم دعتني إلى جانبها. لم يعد صوتها مرتبكاً بل كانت تتلفظ الكلمات بسهولة وكأن لسانها لم يعد مشلولاً. قالت لي:

ـ «لو رأيت اليزابيت ثانية، وأعتقد أن هذا لن يحصل، قل لها إني لم أستطع تحملها قطّ. أموت ولكن من دون أن أقيم وزناً للناس الشرفاء الذين يكذبون ويتظاهرون بالشهامة لأنهم على شفير الموت. الآن، إذهب وأحضر لي ابنك، يجب أن أراه للمرة الأخيرة».

نزلت. ثم رجعت برفقة إبني، كان قد كبر وثقل وزنه قليلاً. كنت، وأنا أحمله لأصعد الدرجات، أهنىء نفسي بوزنه. قبّلته أمي ثم

أعادته إليّ. وقالت:

- «أبعده من هنا، يجب ألا تربيه في هذا المكان.

وقالت أيضاً:

- أتركني، أرغب في أن استقبل الموت لوحدي».

وافتها المنية في الليل. ليلة الثورة. كانت الطلقات النارية تفرقع في المدينة المظلمة. وأثناء العشاء، أخبرنا شوجنيسكي أن الحكومة تطلق النار على العمال.

قال: «دولفوس(*) هذا يدفع البروليتاريا إلى حتفها. فليسامحني. ولكني لا أحبه، إنه يحفر قبره بيده».

كانت طلقات الرصاص، أثناء جنازة أمي عبر الباب الثاني للمدفن المركزي، تستمر في الشوارع. جميع أصدقائنا أي جميع نزلائنا مشوا معنا أنا وأمي. كان مطر محبَّب يتساقط، تماماً كما في ليلة عودتي، المطر نفسه البخيل المحبَّب.

أُنزلت أمي إلى قبرها عند الساعة العاشرة صباحاً.

وحين خرجنا من المدفن عبر الباب الثاني، لمحت مانيس ريزيجر. كان يسير وراء نعش. التحقت به من دون أن أسأله ما الأمر. أُدخل النعش عبر الباب الثالث أي في الجهة المخصصة للإسرائيليين.

بقيت واقفاً أمام الحفرة الواسعة الفاغرة. عندما تلا الحاخام

(*) دولفوس: مستشار نمساوي ١٨٩٢ ـ ١٩٣٤. من أعضاء الحزب الاجتماعي المسيحي. اغتيل على يد النازيين.

صلاته، تقدم مانيس وقال:

«الله أعطى والله أخذ. فليتمجد إسمه في الأبدية. الوزير سفك دم ابني ودمه سوف يسفك. سوف يسفك مثل شلال».

حاولوا إسكاته لكنه تابع وهو يضخّم صوته:

ـ «من يقتل سوف يُقتل. الله كبير وعادل».

وانهار. أبعدوه قليلاً فيما إفراييم ابنه الواعد يدفن في التراب. كان يحارب في صفوف الثوار فقتلوه.

كان جوزف برانكو يأتي لزيارتنا من وقت لآخر. لم يعد يهتم إلاّ بتجارته. ولكن الكستناء هذه السنة أيضاً تعفّنت ونخرها الدود. ولم يبقَ له إلاّ التفاح المطهو.

أنا، بعت بيتنا ولم احتفظ إلاّ بالنزل.

يمكن القول إن موت أمي طرد كل أصدقائي فأخذوا يرحلون الواحد تلو الآخر. ولم نعد نلتقي إلاّ في مقهى «ويمرّل».

كان إبني الوحيد لا يزال حيّاً بالنسبة لي.

كان مانيس ريزيجر قد قال: «من يقتل سوف يقتل...»

لم أعد أقلق بشأن المصائر في هذا العالم. أرسلت إبني ليعيش في باريس عند صديقي لافرافيل.

وبقيت وحيداً، وحيداً وحيداً.

كانت مقبرة الكبوشيين تشكل لي ملاذاً...

خاتمة

في يوم الجمعة ذاك، كنت أنتظر بفارغ الصبر سهرتي المفضلة.السهرة الوحيدة التي كنت أشعر فيها أنني في بيتي منذ لم يعد لي بيت. في ليالي فيينا تلك (المريحة أكثر من الليالي الصامتة)، كنت أنتظر إقفال المقاهي لأرمي بنفسي في أحضانها، حين يصير ضوء المصابيح شاحباً تعباً من لا جدواه، وتائقاً لأن يطلع ضوء الصباح المبطىء في المجيء، ليعلن نهايته. كانت مصابيع فييّنا واهنة راغبة في الراحة كما يرغب مروبصون فيها عندما يطلع الفجر عليها.

آه! كنت أتذكر في أحيان كثيرة، بأيّ ضوء فضي، كانت الكواكب والنجوم، أولاد السماء، تغمر ليالي شبابي. وبأيّ لطف كانت تنحني آنذاك مفرق المدينة لتضيئها. آنذاك، كانت تنانير العواهر اللواتي يمارسن البغاء في الـ«كارتزشترس» تصل حتى كواحلهن، وعندما تمطر السماء، كانت هذه المخلوقات العذبة يرفعن تنانيرهن فأرى أحذيتهن النصفية بأزرارها المثيرة جداً! ثم كنت آمر «بساشر»

لأصطحب صديقي سترنبرغ. كنت دائماً أجده جالساً في الركن ذاته، وآخر من يتناول عشاءه. فننطلق سوية. كان يفترض بنا أن نعود إلى بيوتنا، ولكننا كنا شباباً والليل أيضاً كان شاباً (مع أن الوقت قد تأخر) والعاهرات كنَّ شابات - وخصوصاً هؤلاء المتقدمات في السن - والمشاعل تنضح شباباً.

وهكذا كنا نمشي عبر شبابنا بالذات وعبر شباب الليل. تبدو لنا البيوت التي نسكن فيها كالقبور أو على الأصح كالمنافي. ولكنَّ عمال الخدمة كانوا يبتسمون لنا، والكونت سترنبرغ يقدم لهم من سجائره. وغالباً ما كنا نتابع مع الدوريات السير في وسط الشارع الخالي والشاحب، وحينئذٍ كانت الفتيات الخليلات تتقدمننا ويمشين بطريقة مختلفة تماماً عن تلك التي يمشين فيها عادة على رصيفهن. في ذلك الوقت، كانت المصابيح أقل عدداً مما هي الآن ومظهرها أكثر تواضعاً. لكن شبابها كان يزيد من إشعاعها، ويذهب بعضها إلى حدّ التأرجح جذلاً في ريح الليل.

ولكن، بعد رجوعي من الحرب، ولأنني لم أعد فقط ناضجاً بل عجوزاً تماماً، أظهرت لي ليالي فيينّا تجاعيدها مثل نساء متقدمات في السنّ وقد أقتمهن الزمن. لم يعد المساء يذوب في الليالي كما في السابق بل يتحاشى ملامستها شاحباً مغمياً عليه قبل وصولها. هذه الأماسي المُدْبِرة والمذعورة، كان عليَّ أن أسرع لأمسك بها قبل أن تختفي. وكنت أحب، فوق ذلك أن أباغتها في الحدائق العامة في «فولكسفارتن» في «براتر» لأقبض على نورها الأخير، الأكثر عذوبة، في أحد المقاهي، حيث ينسلّ رقيقاً شفافاً مثل العطر...

إذاً في هذا المساء ذهبت إلى «ليند هامر».

كان الانفعال العام يجعلني بارداً تماماً. كنت منذ رجوعي من الحرب أعتبر نفسي عائشاً سهواً، وأتمرَّن على مراقبة الأحداث التي تصفها الجرائد بالتاريخية، بنظرة محايدة، نظرة من لم يعد ينتمي إلى هذا العالم. كان الموت ينعم عليَّ إجمالاً بعطلة لا محدودة، ولكنه كان يسوّغ لنفسه أن يقطعها في كل لحظة، وقلَّما تعود أمور هذا العالم تعنيني.

ومع ذلك، كانت الأمور تحزنني وخصوصاً في يوم الجمعة ذاك. شعرت أنني في وضع المستقيل من الحياة، الذي يصبح همّه الوحيد أن يعرف هل سيتابع أكل حصّته من طمأنينة مريرة، أم هل سيحرم من هذه الطمأنينة المريرة، من هذا «الزهد» بالأحرى، ولكن الذي درج على تسميته «بالطمأنينة». كانت الأمور قد وصلت بي إلى هذا الحدّ عندما جاء أحد أصدقائي وقال لي إن الوقت قد حان لأهتم بشؤون بلادي. فاقتصر ردّي على الجملة الشائعة: «أريد طمأنينتي». مع أنه كان عليَّ أو أقول: «أريد زهدي! زهدي العزيز!».

جلست إذاً في المقهى. كان أصدقائي يتابعون التحدث في شؤونهم فيما أنا حرمني قدر ظالم ورحوم في آنٍ من أن تكون لي مشاغل خاصة. ولم يتبقَّ لي أن أهتم إلاَّ بالشؤون العامة التي لم يسبق لي أن قلقت بشأنها في حياتي، لا بل التي تحاشيتها طيلة حياتي.

أسابيع كانت قد مرّت ولم أقرأ خلالها جريدة واحدة. كانت أحاديث أصدقائي الذين كانوا يقتاتون من قراءة الجرائد التي تستمد زخمها من كثرة الأخبار والأقاويل. كانت هذه الأحاديث إذاً تمرّ بجانب أذنيّ دون أن تنفذ إليهما أو تؤثر فيهما، مثل صوت تدفُّق مياه نهر الدانوب حين أجلس على رصيف فرنسوا ـ جوزف، أو في

منتزه «أليزابيت». وجدت نفسي معزولاً عن تيار الأخبار! نعم، معزولاً، خارج الأرض. أعني خارج أرض الأحياء.

وحتى، في يوم الجمعة ذاك، بدا لي الحماس الذي يبديه أصدقائي تافهاً. إلى أن فُتح باب المقهى بقوة وظهر شاب عند العتبة. كان يرتدي ثياباً مضحكة: لفافات ساق من الجلد الأسود وقيمصاً بيضاء وقبعة عسكرية ذكّرتني بِمبْوَلَة أو بكاريكاتور لقبعتنا العسكرية القديمة. خلاصة القول، لم تكن هذه القبعة مجرد غطاء بروسي للرأس (لأن البروسيين لم يكونوا يرتدون برانيط أو القبعة مجرد غطاء بروسي للرأس (لأن البروسيين لم يكونوا يرتدون برانيط أو قبعات، بل فقط أغطية للرأس). وأنا الذي كنت أعيش بعيداً عن العالم وعن الجحيم الذي يمثله العالم في نظري، وجدت نفسي عاجزاً عن التعرف إلى البذلات الجديدة، أو فلنقل عن التحقق من هويتها.. أن تكون القميص زرقاء أو خضراء أو حمراء، أن يكون السروال أسود أو بنياً، أخضر أو أزرق فاتحاً، وأن تكون هناك جزمات ومهاميز وحمّالات أسلحة وأحزمة وخناجر في أقربة من الأنواع كافة... كنت قد قررت من جهتي ومنذ زمن طويل يرجع إلى عودتي من الحرب، ألاّ أميّزها وألاّ أتعرف إليها. ومع ذلك، كنت أكثر ذهولاً من أصدقائي لدى رؤية الشخص السعيد الذكر. في الحقيقة. خلت لبعض الوقت أن المراحيض الموجودة في الدور الأرضي قد نقلت فجأة إلى الشارع، وأن أحد المسؤولين عن صيانتها جاء ليعلن أن الأماكن كلها مشغولة. ولكن الرجل صاح قائلاً:

«فولكسغنوسَن(*). لقد أطيح بالنظام وتولّى السلطة حكم ألماني

(*) فولكسغنوسَن: عبارة نازية تعني: أصدقائي ومواطنيّ.

شعبي جديد».

منذ رجوعي من الحرب، رجوعي إلى وطننا العجوز الذي غزته التجاعيد، لم أستطع قطّ أن أتوصل للإيمان بأيّ حكم كان، وبحكم شعبي بالذات. واليوم أيضاً ـ عشية موتي، فليُسمَح لي، لرجل مثلي أن يقول الحقيقة ـ اليوم إذن، مازلت أنتمي إلى حقبة ميتة في الظاهر، إلى تلك الحقبة حيث كان يُعتبر أمراً طبيعياً أن يكون الشعب محكوماً لأنه لا يستطيع أن يحكم نفسه من دون أن يكفّ عن أن يكون شعباً. «حكم شعبي»، وقعت هذه الكلمات في أذنيَّ المصابتين بالصمم واللتين كانتا توصفان مراراً بالرجعيين، موقع كلمات امرأة حبيبة جاءت تعلمني أن بإمكانها الاستغناء عني، وأن عليها، كي تنجب ولداً، لا بل كانت مضطرة تماماً للنوم وحدها في السرير.

وأكثر ما أذهلني، هذا الرعب الذي استولى على أصدقائي عند رؤيتهم الرجل ذي الجزمة المضحكة، ولدى سماعهم التصريح الذي ليس أقل إضحاكاً. كنّا نحتل كلنا ثلاث طاولات. ولكني ما أن مرّت لحظة، حتى وجدت نفسي وحيداً. وحيداً حقاً وتماماً. للحظة، بدا لي أنه بعدما فتشت عن نفسي وقتاً طويلاً، وجدت نفسي في وحدة مرعبة. نهض جميع أصدقائي فجأة، وبدل أن يتمنوا لي ليلة سعيدة كالعادة، صاحوا قائلين: «أيها الخادم، الحساب!». وبما أنَّ النادل فرانز كان مختفياً، هتفوا بصاحب الحانة أدولف فيلدمان: «سنسدد الحساب غداً!» وخرجوا دون أن ينعموا عليَّ بنظرة واحدة.

واسترسلت أفكر بأنهم سيرجعون بالفعل ليدفعوا الحساب غداً، وأن فرانز، إذا لم يهب لتلبية ندائهم بالسرعة المعتادة، فذلك لحاجة ما في المطبخ أو في مكان ما آخر. ولكن، بعد دقيقتين، برز صاحب الحانة من وراء طاولة الشرب، مرتدياً قبعته وحاملاً معطفه على

ظهره. ثم قال لي:

«سيدي البارون، سنفترق إلى الأبد، إذا سمح لنا القدر بأن نلتقي في هذا العالم، فسنتعرف إلى بعضنا. لن ترجع بالتأكيد إلى هنا غداً... بسبب هذا الحكم الشعبي الألماني الجديد. هل تريد العودة إلى البيت أم أنك راغب في البقاء هنا لبعض الوقت؟»

- «سأبقى، كالعادة.

- «إذن، الوداع يا سيدي البارون. سأطفىء الكهرباء. سآتيك بشمعتين».

أشعل شمعتين بيضاوين. فشعرت بطريقة غامضة أنه كان يشعل شموع موتي. لكن ما كدت أعي ذلك حتى أطفئت جميع الأنوار في المقهى. ثم جاء أدولف، مزرقاً تحت قبعته السوداء وشبيهاً بدافن الموتى أكثر مما هو شبيه بصاحب حانة سعيد ذي لحية فضية. ووضع أمامي صليباً ثقيلاً رصاصياً معقوفاً ثم قال لي:

- «لكي تتقلده إذا اقتضى الأمر. يا سيدي البارون. اشرب كأسك الصغير بهدوء. سأسدل ستارة الواجهة. وحين ترغب في الذهاب. يمكنك أن تفتحها من الداخل. ستجد العصا إلى يمين المدخل».

قلت: «أريد أن أدفع حسابي».

أجاب: «ليس الوقت مناسباً اليوم».

كان قد توارى. وسمعت الستارة الحديدية تنزل أمام الباب.

وجدت نفسي وحيداً تماماً أمام طاولتي، وجهاً لوجه مع الشمعتين. كانتا تلتصقان بالرخام المزيّف شبيهتين بدودتين

بيضاوين سمينتين منتصبتين مشتعلتين. وتهيأت عند كل دقيقة لأراهما تتأهبان للعضّ، كما يفترض بالديدان أن تفعل.

تولاّني خوف مشؤوم. فصرخت: «فرانز، الحساب!»، كعادتي في كل مساء.

لم يأتِ الصبي إلى ندائي، بل كلب الحراسة الذي كان يجيب هو أيضاً لدى سماعه إسم فرانز. لم يكن بإمكاني أن أتحمله، بهيمة رمادية بلون الرمل،عيناه غمضاوان وفمه سائل اللعاب. لا أحب الحيوانات وخصوصاً الكلاب. اعتقدت دائماً أنها تنتزع من الناس جزءاً من العطف الذي يخصهم. ووجهة نظري هذه بدت لي صائبة، خصوصاً مذ عرفت أن حُماة الرايخ الثالث يظهرون عطفاً خاصاً جداً للعسابير التي كانت تستخدم في المانيا لتحمي القطيع.

فكرت: «يا للقطعان التعيسة!»

إذن، كان التوتو هو الذي هرع لتلبية ندائي. وبالرغم من أني كنت عدوّه أخذ يفرك رأسه بساقي وكأنه يطلب مغفرتي. وكانت الشموع تحترق جنائزية، ماتمية. لم تصل إلى مسامعي أية دقات من ساعة «البيتركيرش». لم أكن أحمل ساعة قطّ، وأجهل كم الساعة الآن... قلت للكلب:

ـ «فرانز، الحساب!»

فقفز فوق ركبتي. قدمت له حفنة من السكر لكنه لم يأكلها بل اكتفى بهز ذنبه. ثم أخذ يلحس اليد التي رفض هديتها.

أطفأت شمعة وانتزعت الأخرى عن الرخام المزيف. اتجهت نحو

الباب ثم حملت العصا وأزحت الستارة الحديدية من الداخل.

كنت أريد في الواقع أن أتخلص من الكلب ومن عروض صداقته. لكن، عندما صرت في الشارع وأمسكت العصا في يدي لأنزل البكرة، وجدت أن فرانز يرفض أن يفارقني. كان يقتفي خطواتي. كان مستحيلاً عليه أن يبقى هنا. فهو كلب عجوز. مكث عشر سنوات في خدمة مقهى «ليندهامر» كما مكثتُ أنا في خدمة فرنسوا ـ جوزف . والآن، لم يعد في مستطاعه الاستمرار، على أية حال، لم يعد في مستطاعنا نحن الإثنين الاستمرار، لا أنا ولا هو.

فردّدت:

ـ «الحساب يا فرانز!»

أجابني محرّكاً ذنبه.

كان الفجر يطلع فوق الصلبان الغريبة. ونسيم ناعم يؤرجح المصابيع القديمة التي لم تطفأ بعد. لم تطفأ بعد هذه الليلة. سرت على امتداد الشوارع الغريبة يرافقني كلب غريب. كان مصمماً على اللحاق بي. ولكن إلى أين؟

لم أكن أعلم منه بذلك.

كان مدفن الكبوشيين حيث يرقد أباطرتي في نواويسهم الحجرية، مقفلاً.

جاءني أخ كبوشي وسألني:

ـ ماذا تريد؟

ـ أود أن أرى تابوت الأمبراطور فرنسوا جوزف.

ـ لتكن بركة الله معك، قال لي الكبوشي، وهو يرسم إشارة الصليب.

ـ ليحفظ الله الأمبراطور(*)! صرخت.

ـ هسّ! قال الراهب.

أين أذهب الآن؟ أين أذهب؟ أنا سليل أسرة تروتّا؟

(*) مطلع النشيد الامبراطوري النمساوي.